الكتاب الأول

سقوط ثمرة وحيدة

قصص

حسن صبرى

المجلس الأعلى للثقافة



حسن صبري

التصميم الأساسى للغلاف للفنان محيى الدين اللباد + أحمد اللباد

اهــــــداء 2004

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
القاهرة

الكتاب الأول

- ٣٤ -

سقوط ثمرة وحيدة

قصص

حسن صبرى



١٩٩٩



الأبـــــراج

مثل قزم وسط عماليق ، يقف برج الحمام القديم .. تتطلع عيونه الكثيرة بدهشة وتوجس إلى الأبراج الشاهقات من حوله ، تعلوها أطباق مقعرة كبيرة ، تشرئب نحو شتى الجهات ، وهوائيات استقبال ، ومكيفات هواء تبرز من الجدران .. يبدو برج الحمام كنصب شاذ ينتأ من سطح البيت العجوز ، القابع مستوحشًا ، جافلاً ، عليه غربة وسهوم الأشياء القديمة .

يطوف إبراهيم بطلول الحديقة فى الصباح ، مثلما يفعل كل يوم منذ رجع من السفر .. يتحرك كدمية حول كوخ بقاع وادٍ ، تحاصره الجبال العملاقة ، وتكاد تطبق عليه .. يشاهد شجيرات الطماطم التى زرعها بيديه فى الحقل الصغير وشجرة الرمان العارية الفروع .. يحدق فى شكل تخلّف عن سقوط طبقة البياض ، وفى الشروخ ، جراح البنايات القديمة ، التى تزيدها الأيام عمقاً واتساعاً .. يتأمل الأحجار الجيرية الرطبة ، أساس البيت ، ومن فوقها قوالب الطوب النيئ الآخذة فى التحلل والتآكل .

ارتقى إبراهيم فى الدرج الخشبى إلى السطح .. راح يهدهد بين يديه الصينية النحاسية ذات الحافة المنقوشة ، وينثر الحب ، وعلى

وشوشات الحب يقبل الحمام .. تحطُّ على كتفه حمامة ، وأخرى تصطفى قمة رأسه مهبطا .. تصطفق الأجنحة الفرحة وتصطخب .. يلقط الحمام من الأرض ومن كفه المبسوطة بالحُب والحَب .. ينثال الماء إلى الوعاء الخزفى، وينهل الحمام ، وينزل كى يستحم .. ينفش ريشه نشوان وينتفض .. يرقد باسطاً الأجنحة لضوء الشمس ، وتأتلق الرقاب بألوان الطيف .

أسند إبراهيم السلم الطويل إلى برج الحمام ، وصعد يتفحص العيون .. نزل وفى عينيه فرحة طفل . أحضر الخشب والمسامير ، وشرع يسد فروج حجرته الخشبية التى أقامها على مقربة من الفرن المتشقق الخامد منذ زمن طويل .. أطل من نافذة الحجرة على برج الحمام ، ينصت إلى الهديل ، ويشاهد طقوس الغزل .. استلقى على ظهره فوق السجادة البالية ، وأخذ يشاهد السماء من كوة السقف ..

" ما تزال تجثم فوق صدرى السحابة القاتمة ، المشبعة بدخان النفط المحترق ، ودخان القذائف والقنابل ، وغبار البنايات المتهاوية .. لازمتنى طوال رحلة العودة .. لماذا تطاردنى ولاتريد أن تزايل سمائى؟!"

تحول إلى مشاهدة الحمامة الغريبة الوافدة .. راعه وجود حلقة معدنية حول ساقها . كانت تقف على حافة النافذة فى ألفة مثيرة للدهشة .. لحق بها ذكر بلون «نوار الفول» .. يناغيها .. يدنو منها منتفخ الصدر هادلاً .. استجابت لنداء الحب بعد قليل صد وتدلل . أخذا يتوشوشان ، ثم رقدت مستكينة ، خافضة جناحيها ، وارتعشا من نشوة . لم تجفل الحمامة الوافدة أو تنفر من يد إبراهيم المتدانية ..

استكانت فى راحيته ، وفحص الساق .. كانت الحلقة المعدنية تنغرس فى اللحم ، يحوطها ورم طفيف .. حاول انتزاعها فتألمت الحمامة .. كانت الحلقة قد اندمجت وصارت جزءاً من تكوين الساق .

نثر إبراهيم وجبة اليوم الأخيرة للحمام قبيل الغروب ، وبينما كان يحدق فى الأبراج ، وقعت عيناه على سيدة تتمدد على مقعد بإحدى الشرفات ، وقد انحسر الثوب كاشفًا عن ساقيها البضتين . وعلى الرغم من إغضائه السريع ، فقد بدا عليه الاضطراب والخجل ، فهرول نازلاً .. لاقى جيهان ابنة شقيقته أمام الباب .. كانت تحمل كتابا ودفاتر وتتدلى من كتفها حقيبة .. سبقته إلى الدخول صامتة . دخل على شقيقته الجالسة على أريكة الصالة العتيقة فى مواجهة الباب ، ترتق ثوباً بيدها ، وقد ارتدت جلباباً داكناً ، وعصبت رأسها بمنديل أسود ، يلوح من تحته بعض الشعر الأبيض .. قال لها فى فرحة :

- الحمام يتكاثر .. فى كل عين من عيون البرج حمامة راقدة .. هناك بيض كثير على وشك الفقس !

ابتسم وجهها الشاحب :

- لابد أن الحمام المهاجر قد آب إلى برجه القديم ، بعد أن أحس بالأمان .. منذ رجعت من السفر يا إبراهيم ، وأعداد الحمام تزيد .

التفت شقيقه محسن الذى يتابع مبارة كرة قدم فى تليفزيون صغير مشوش الصوت :

- هذا ليس زمن الحمام .

ارتفع صوت جيهان التى تغير ملابسها فى الداخل :

- خالى وماما ليس لهما سيرة غير الحمام ، وشجرة الرمان التى لم تعد تورق وحقل الطماطم !

برز وجه شقيقه محمود من باب الحجرة الجانبية ، وهو يسده بمرفقيه :

- أتظن أننا يمكن أن نجمع ثروة من تربية الحمام ، وزراعة الطماطم فى الحديقة ؟

جال إبراهيم بنظراته بين شقيقيه وجيهان :

- لماذا تكرهون الحمام؟! كانت أمكم تحبه ، وتراه فى منامها .. وجاءت من القرية تحتضن زوجين من الحمام ، تكاثرا ، وصارا أسراباً ، تحلق فى السماء ، وترفرف على البيوت والجيران الطيبين .. الحمام موجود فى هذا البيت قبل أن توجدوا أنتم ، وكان البرج معلماً من معالم الشارع ، وكان الناس يسترشدون به ، ويسمون بيتنا بيت الحمام .

صاحت جيهان :

- وأين تلك البيوت؟ وأولئك الجيران الطيبون؟ ألا ترى الأبراج الجديدة ، وسكانها الذين يركبون السيارات ، ويمشون على السيراميك ، ويعيشون فى الحجرات المكيفة؟ أنا أخجل من برج الحمام ومن هذا البيت، أمام زميلاتى فى الجامعة .

أسكتتها نظرة من أمها .. ورنا إبراهيم إلى شقيقته مستهديًا بعينيها مستأنساً :

- كريمة .. سيعود بيتنا كما كان بيت الحمام .

أجابت بصوت تخامره ارتعاشات الشك :

- الحمام بخت يا إبراهيم .. ألم تكن تسمع أمك تقول : عايز بختك يبان ، هات لك جوزين حمام !

★ ★ ★

كان مستغرقاً فى تأمل السماء من كوة السقف .. انتفض على صرير باب الحجرة .. انحنى القادم ، وسد جسمه الضخم فراغ الباب .. كان يرتدى سويتر قرمزى اللون ، وكوفية مزركشة تلتف حول عنقه الغليظ ، ويحمل منظاراً مقرباً .. قال إنه ضابط شرطة متقاعد ، وإنه من هواة تربية الحمام . تركزت عينا إبراهيم فى حذاء الرجل الذى كان يجول بنظراته فى أنحاء الحجرة .. خرجا معًا إلى السطح كطلب الرجل .. أشار إلى برج شاهق فى شارع خلفى بعيد .. مد يده بالمنظار إلى إبراهيم :

- أنا اسكن هناك .. بالطابق الخامس عشر .. يمكنك رؤية كل شىء إذا أحسنت توجيه وضبط المنظار ..

وضع إبراهيم المنظار أمام عينيه ، وصوبه نحو البرج البعيد ، مستعيناً بإرشادات الرجل :

- أظنك ترى العشة الآن بوضوح ؟

- أى عشة ؟!

- عشة الحمام !

- أرى قفصًا مثل أقفاص الوحوش .. أمتأكد أنت أنك تربى الحمائم لا الصقور والجوارح ؟

ضحك الرجل .. قال إن الحذر واجب وأعداء الحمام كثر .. أخبر إبراهيم أنه يضع الحمام فى عشة صممها بنفسه ، تتوافر فيها كل ضمانات الأمان ، فقد جعل لها قضباناً من الحديد ، يكسوها حاجز مزدوج من سلك متين ، وتغلق بواسطة عدة ترابيس قوية وقفل كبير .. وقال :

- إنها لاتسمح بدخول نملة ..

- أعتقد أنها لاتسمح بدخول الهواء أيضا ...

ضحك الزائر ، وأبدى دهشته لترك إبراهيم حمامه طليقاً .. حدّق إبراهيم فى عصفورين بقفص فى إحدى الشرفات :

- لم يخلق كل ذى جناحين للأسر ..

ثم نظر إلى الأبراج :

- ألا يكفى الحمام هذا الحصار؟!

حملق الرجل فى نهدى المرأة المترجرجين أمامها ، وهى تميل وتنشر الغسيل ، وتقبض عليه بمشابك ملونة :

- ماذا تقول فى لحم الحمام؟ إن له شهرة واسعة فى بعث الطاقة وإثارة النشاط .. كيف لم تتزوج حتى الآن ؟!

حدق فى الرجل مشدوها ..

- لم أذق فى حياتى لحم الحمام ، ولا أشتهيه ، ولا أطيق رؤية حمامة تذبح أمامى .

- لماذا تربى الحمام ؟! لتبيعه إذن؟

- ليتكاثر ويملأ الفضاء ويحجب سحابات الدخان!

- هواية لمجرد الهواية .. تسلية .. وقت فراغ!

طال الصمت بينهما .. وقال الضابط :

- أظننا تعارفنا إلى حد ما يا أستاذ إبراهيم .. لاتعجب .. لقد جمعت بعض المعلومات القليلة عنك قبل مجيئى .. هذا ضرورى جداً .. مع الأسف .. لا أحد الآن يعرف الكثير عن أحد ! جئت لكى استرد حمامة هاربة .. فى رجلها حلقة معدنية ، محفور عليها أول حرفين من اسمى .. أظنها دليلاً كافياً؟!

وأخبر إبراهيم أنه ابتكر الحلقات المعدنية وسيلة يستدل بها على حمامه إذا لزم الأمر ..

- الحمامة عندى منذ بضعة أيام ، وقد صار لها إلف ، واتخذت فى البرج سكناً ..

- أعرف فى أى العيون هى ، ومتى جاءت إليك بالتحديد .. كنت أراقبها بمنظارى ، وكنت متأكداً أنها ستأتى إلى هنا بعد اختفائها يومين؛ فالحمام يغوى بعضه بعضًا ، وكان يجب أن أصبر حتى تستقر فى البرج تماماً .

- وهل تعرف أنها ترقد على بيضتين؟

لم يبد عليه الاهتمام ، وسأله إبراهيم كيف استطاعت الحمامة الهروب على الرغم من احتياطاته الأمنية المنيعة؟

أجاب فى شيء من الحنق :

- ربما وجدت بين الحمام فرداً مارقاً .. متمرداً .. أحياناً أترك باب العشة مفتوحاً دون أن تجرؤ على اجتيازه حمامة ..

- اعتاد حمامك الأسر ، وصار مشلول الأجنحة ..

عرض إبراهيم على الضابط ترك الحمامة مع إلفها فى مقابل أول زوجين يأتيان من نتاجهما .. رفض الضابط بإصرار ، وطلب من إبراهيم أن تعيش الحمامة وزوجها فى عشته بنفس المقابل .

صاح إبراهيم ملتاعاً :

- لا .. لا ! !

صعد الضابط إلى البرج ، وأمسك بالحمامة ذات الحلقة المعدنية بالساق .. كانت تئن وتتململ فى قبضته ، وقد اعترتها حالة غريبة من الفزع ..

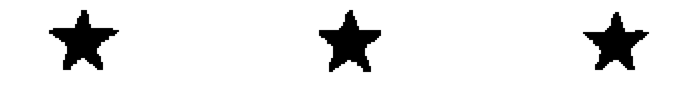
- حمامك من نوع أصيل يا أستاذ إبراهيم .. ما رأيك أن نتبادل المعلومات والخبرات مادام لنا نفس الهواية؟

لم يجب إبراهيم ، واستوقف الرجل على الدرج الخشبى :

- أرجوك لاتصوب منظارك ناحيتى بعد ذلك .

نزل الرجل وهمس إبراهيم فى حيرة :

- لماذا لا أسمع وقع أقدامه على الدرج !



جمع الأغصان اليابسة من الحديقة ، وصعد بها إلى السطح .. كانت كريمة قد فرغت من ترميم الفرن بالطين ، ونظفته استعداداً لشى السمك .. تأججت النار ، وجلس إبراهيم بجوار شقيقته ينشق الدخان المتصاعد وقد غيبه انتشاء: «دخان أمى الطيب .. دخان الخبيز ، تخامره رائحة العجين والخبز الساخن .. دخان الشواء .. دخان الأخشاب والقوالح المحترقة وقد اجتمعنا حولها فى ليلة شتاء باردة .. »

انتبها وأرهفا السمع لوقع أقدام متسارعة تصعد الدرج الخشبى . وقفت جيهان تحملق فيهما لحظات ..

- ماذا تفعلان؟!

استدارت وأجابت باسمة :

- خالك يريد أن يأكل السمك مشوياً فى فرن جدتك .. سأصنع لك فطيرة ، وسأعمل لك عروسة من العجين كما كانت تفعل أمى .

عبست جيهان وهرولت نازلة ..

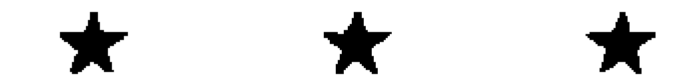
سأل إبراهيم شقيقته ، وقد افترشا الأرض ، وأمامهما السمك المشوى :

- هل احتفظت بنصيب محمود ومحسن ؟

أجابت : نعم .. ورفضت جيهان أن تشاركهما الطعام ، وانفجرت بعد صمت :

- لقد كنتما فرجة لسكان الأبراج وأنتما أمام الفرن .. فى أى زمن تعيشان؟! كان منظركما فوق السطح ...

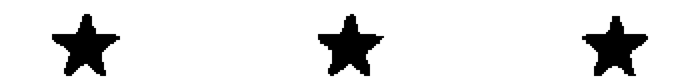
وانطلقت فى نوبة من الضحك المتشنج ...



اكتشف اختفاء فرخى حمام من إحدى العيون ، وانتابته حالة من الوساوس المضنية . احتفظ بكشاف أسفل وسادته ، وكان يبيت مرهف السمع لأقل رفة جناح .. يهب من إغفاءاته القليلة فزعاً ، ويمضى كالمتخبط حاملاً كشافه المضىء ، يعس فى الحديقة ، ويتسلل إلى السطح باحثا عن عدو الحمام المجهول . يلاحق بعينيه بقعة الضوء متوجساً .. رابته فى سكون السحر حركة .. وجد باب الحجرة الخشبية موارباً .. دخل مستريباً ، واستقرت بقعة ضوء الكشاف على قط ضخم أسود ، فمه ملوث بالدماء .. تجمد إبراهيم فى مكانه وقد أخذته المفاجأة .. تراجع القط وقد تقوس ظهره ، وانتفش ذيله وجسمه ، وأخذ فى إصدار أصوات كالعواء ، متأهباً للانقضاض .. انزوى إبراهيم فى ركن الحجرة مقشعراً ، واندفع القط خارجاً .. استغرقت المواجهة لحظات ، وقف إبراهيم بعدها لاهث الأنفاس .. سلط الكشاف على الضحيّة : الحمامة العجوز التى عافت الطعام والشراب منذ أيام ، وكانت تقبع بجوار الفرن .. وجدها إبراهيم مبقورة البطن ، منزوعة الأحشاء . واراها التراب

علـى مقربة من شجرة الرمان ، واهتدى إلى فكرة الأطر الخشبية ، فصنع لكل عين من عيـون البرج إطاراً ، يضـيق من فراغـهـا ، بحيث يسـمح بانزلاق الحـمـام إلى داخل العـيـون ، ويعـوق دخـول القط ذى الرأس الكبيرة. نجحت فكرة الأطر الخشبية المثبتة إلى العيون ، ومرت بضعة أيام بلا ضحايا ، واستعاد إبراهيم الكثير من الأمان ، وتوالى فقس البيض ، وخروج الأفراخ الجديدة ، إلى أن اكتشف إبراهيم اختفاء عدد من البيض .. قالت له شقيقته : لابد أنه ثعبان .. القط يفترس الحمام الصغير ، والثعبان يبتلع البيض ، وهذا هو السبب فى تناقص أعداد الحمام ، وانقراض الأفراد الجديدة بعد رحيل أمك ، وغيابك فى السفر ..

سألها فى أسى : لماذا لم يكن يحدث ذلك أيام أمى؟!



اجتاحته الوساوس الليلية بضراوة ، وعاد إلى حمل كشافه ، والطواف بالحديقة .. يسلط الضوء على شروخ الجدران ، وشقوق السور ، وفجوات الجذوع النخرة ، ويصعد إلى السطح ، يتابع بقعة الضوء وسط الصمت والظلام .. حشا الشروخ والشقوق بالحصى وسدها بالطين ، وصنع أغطية خشبية كالسدادات ، يثبتها بعيون البرج أوائل الليل ، وينزعها فى بواكير الصباح .. ومرت الأيام بلا خسائر ..

فى سكون الظهيرة شاهد ثعبانا أرقش يتسلل من إحدى العيون ، ويتلوى نازلاً .. أسقطه إبراهيم بعصا طويلة .. زحف الثعبان متفادياً الضربات واختبأ بالفرن .. أضرم فيه النار ، فخرج الثعبان مترنحاً ،

وفتت إبراهيم رأسه بحجر ، واطمأن تماماً عندما زفت إليه أخته البشرى: أخبرته أنها شاهدت القط الأسود نافقاً على رصيف الشارع ، وقالت له إن القط المؤذى مصيره المحتوم هو القتل ..

خرج فى ظلمة الليل إلى الشارع ، وسلط الكشاف على جثة القط .. كان يتمدد متصلباً ، مشجوج الرأس ، مكشراً عن أنيابه .. تفاءل إبراهيم ، واستقبل أنسام الربيع الدافئة ، المتسللة من جو الشتاء بأمل .. واستراح من عناء تثبيت السدادات ، وانتزاعها .. وانطلقت من العيون أزواج جديدة من الحمام بهيجة المنظر ، تطير هنا وهناك ، وتلاحق الأبوين فى تذلل جميل ، وصوصوة مستعطفة، طمعاً فى مزيد من الطعام والحنان ، وتشبثًا بعهد الطفولة السعيد ..

★ ★ ★

وجدها ترقد فى انكسار ، عند انتهاء البقع الدموية التى تشربتها مسام الدرج .. حملها .. أحست لزوجة الدماء وحرارتها أصابعه .. كان ريشها الأبيض يصطبغ باللون الأحمر القانى من تحت الجناح .. نزل بالحمامة الجريحة وقال لشقيقته بالتياع :

- أصابتها طلقة من بندقية صيد ، لكنها ماتزال حية ..

نظرت إليه كريمة بإشفاق ، وساعدته فى تضميد الجرح النازف برباط من نسيج أبيض سرعان ما تخضب بالدماء .. أودعها صندوقاً من الكرتون ، وعاد إلى السطح ، يحدق فى الأبراج .. كان يدور بطيئاً حول نفسه متسائلاً: من أين أتت الطلقة الغادرة؟ وكانت الأبراج مثل مردة صامتين ..

أخبرته شقيقته باحتضار الحمامة عند الغروب ، ولفظت أنفاسها الأخيرة بين راحتيه .. وضعها فى الصندوق ومضى إلى الحديقة .. شرع يحفر تحت شجرة الرمان .. رفع رأسه ليجد شقيقه «محمود» أمامه عاقداً ذراعيه .

- ماتت الحمامة يامحمود! كنت آمل أن تعيش ، ولكن أصابتها كانت قاتلة ..

- ليت كل الحمام يموت!

توقف إبرهيم عن الحفر، وحدق فى شقيقه ..

- إلى هذه الدرجة تمقت الحمام؟!

- ما سر اهتمامك بالحمام بعد رجوعك من السفر؟! هل تتمسك بالبيت من أجله حقا ، ومن أجل البرج القديم ، وشجرة الرمان اليابسة وحقل الطماطم؟ أنت والحمام تضيّعان أحلامنا .

أسفر الشباك المتهاك عن وجه محسن .. وقال إبراهيم وهو يوزع نظراته بين شقيقيه :

- أتمسك بالبيت من أجل كل شىء فيه .. كل حجر .. كل طوبة .. ألم يبن أبوكم البرج بيديه؟ أليس البيت يجمعنا ؟

قال محمود :

- المعلم فايز مازال يريد البيت .. لقد حدثنى عنه كثيراً وأنت مسافر .

- ليهدمه ويجعله برجاً .. ألا يكفيه ماهدم من بيوت طيبة ، ومازرع فى الأرض من أبراج شيطانية؟!

قال محمود :

- ولم لا نبيع ؟ نحن ورثة مثلك .. أنا أريد نصيبى .. ومحسن.. جيهان أيضا تتحدث عن نصيب أمها .

وأكمل محسن من الشباك :

- ألمْ تسافر لتجمع المال ، وتعطى كل واحد نصيبه؟ ألم تعدنا بتحقيق أحلامنا ؟

- حاولت .. هل كان يتوقع أحد ما حدث؟ هل تجدان تفسيراً لما جرى على أرض العرب؟ فقدت كل شئ .. وكان يمكن أن أعود جثة فى صندوق أو لا أعود ..

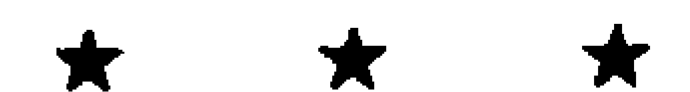
وجم الشقيقان .. وبدا إبراهيم كالمطعون ..

- لماذا تنتظران أن أحقق أحلامكما ؟ .. ألستما رجلين الآن ، يحمل كل منكما شهادة جامعية؟ هل فكر واحد منكما فى أن يرد مرة على رسالة من رسائلى وأنا فى الغربة؟ هل كان سيأتى أحدكما لاستلام جثمانى من المطار؟

استدار محمود وابتعد بخطوات مستفزة الهدوء ، وانسحب محسن من الشباك وأغلقه ، وتطلع إبراهيم إلى السماء :

«السحابة السوداء !! لماذا لاتريد أن تنقشع عن سمائى؟!»

وارى الحمامة التراب ثم قبع وحيدا فى الحديقة ..



مع إشراقة كل شمس ، كانت هناك حمامة صريعة مضرجة فى دمائها أو تحتضر .. ازدحمت أرض الحديقة بالجثث ، وصارت مقبرة للحمام ، واستبدت بإبراهيم وساوسه الليلية ، وتحولت إغفاءاته إلى كوابيس ، يهب منها مرتاعاً ، وقضى فترات طويلة من الليالى مصوبًا كشافة نحو الأبراج العملاقة ، متابعًا دائرة الضوء على النوافذ والشرفات كالمجنون ، وظل يكمن فى حجرته الخشبية معظم أوقات النهار ، واعتراه ذبول وشحوب ، وسكنته الكآبة ، وأعياه البحث عن البندقية المجهولة ، واليد الآثمة التى تضغط الزناد .. وبينما كان رابضًا فى الحجرة قبيل الشروق ، سمع صوتاً مكتوماً ، أعقبه ارتطام شيء بسقف الحجرة .. تسلل بهدوء ، واستطاع أن يرى الماسورة الرفيعة السوداء وهى تنسحب زاحفة على حافة نافذة بأحد الأبراج ، وعرف مكانها على وجه التحديد .. وشاهد الحمامة ترفرف نازفة فوق السقف .. أخبر شقيقته فأشارت عليه بالذهاب إلى المعلم فايز صاحب الأبراج ، ولاقت لديه الفكرة قبولاً ، فقد كان يريد إيقاف نزيف الدماء بطريقة سليمة .

قصد إبراهيم إلى معرض «السيراميك» الفسيح الذى يمتلكه المعلم فايز ، ويحتل مساحة واسعة أسفل أحد أبراجه .. التقاه فى حجرته الزجاجية المكيفة العطرة .. رحب به المعلم فايز الجالس إلى مكتبه الفخم، وأمامه عود بخور متوهج القمة .. أخبره إبراهيم أن الحمام يهوى صريعًا بطلقات بندقية صيد ، وحدد له مكان الشقة ، وعرف من المعلم فايز أن بتلك الشقة سكانًا جدداً .. عجوزاً وزوجها المقعد وابنها الشاب.. وأرسل المعلم فايز اثنين من عماله الأشداء لإحضار الشاب والبندقية ، وقال وهو يقدم علبة من العصير لإبراهيم :

- هل حدثك محمود في موضوع البيت ؟ مازلت أريده .. سأدفع أعلى سعر ثمنًا للمتر .. وسأعطيكم شقة واسعة بأحد أبراجي فوق ذلك ..

- لقد جئتك من أجل إنقاذ الحمام ..

- ألا ترى أن بيتكم يشوّه منظر الشارع ؟ خسارة كبيرة ألا تتحول هذه المساحة الواسعة إلى برج !

زحزح إبراهيم علبة العصير من أمامه :

- كان بمقدوري اللجوء إلى القانون لإنقاذ الحمام ..

ابتسم المعلم فايز ..

- القانون؟! لن يفيدك القانون شيئًا .. لم أقل لك إن ذلك الشاب يعاني من مرض نفسي ، وتنتابه حالات من الهياج والثورة ، فلا يدري ماذا يفعل .. عرفت ذلك من أمه ، وقرأت بنفسي الشهادات الطبية .. كل مايقدر عليه القانون هو مجرد تعهد وأنا كفيل بذلك .

جاء الشاب ومعه بندقية صيد ذات منظار . كان طويل القامة ، وسيم الملامح ، يرتدي بنطلون جينز ، وقميصا مفتوح الأزرار ، تبدو منه فانلة مرسوم عليها صورة لمطرب عالمي مشهور ، وكان يبدو عليه الهدوء الشديد . سأله إبراهيم بوجه دهش عاتب :

- لماذا تقتل الحمام؟!

أطرق الشاب ولم يجب ، وكرر عليه السؤال :

- لماذا تقتل الحمام؟ أليس هذا حراما ؟

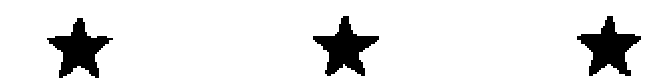
رمقه الشاب بنظرة مستهينة ، وهب إبراهيم واقفاً ، وأمسك بقميصه ، وجذبه اليه بقوة :

- لماذا تقتل الحمام؟!

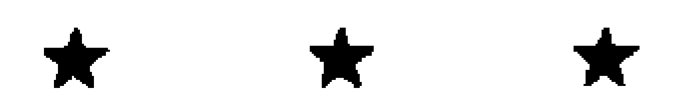
نحى الشاب يدى إبراهيم بعصبية ، وقال وهو يرفع البندقية :

- ولماذا جعلت هذه؟!

تدخل المعلم فايز ، وتحدث إلى الشاب ، وجعله يتعهد لإبراهيم بعدم قتل الحمام ، وسلم الشاب البندقية للمعلم فايز إثباتاً لحسن النية . احتجز المعلم فايز البندقية لديه ، وأسندها إلى الحائط خلف مكتبه ، وخرج ابراهيم راضياً .

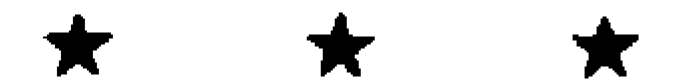


كان حزيناً لهجرة الحمام برجه القديم ، ولجوئه إلى الأبراج العملاقة.. كان يراه على هوائيات الاستقبال ، والأطباق المقعرة ، وأسيجة الشرفات ، ولم تعد تصل إليه وشوشات الحب والحب .. قالت له شقيقته إن الحمام يهجر أوكاره إذا افتقد الأمان ، لكنه يبقى دائم الحنين إلى مكانه الأول ، ينتظر الوقت المناسب للعودة ..



سر إبراهيم لاكتساب ثمار الطماطم الخضراء حمرة خفيفة ، وأدهشه انبثاق الأغصان من شجرة الرمان ، تحمل وريقات زاهية الخضرة ، وأقبلت الأيام تبشر بعهد جديد من السلام ، وآب الحمام إلى برجه ، وانشرح صدر إبراهيم وأفعمه الأمل ، وقال لشقيقته كالحالم : سأزرع

الحديقة بأشجار الفاكهة .. سأزرع البرتقال والليمون والجوافة .. سيكسو الياسمين سورها ، وتصنع أزهاره مظاهرة بيضاء ، تضج بالعبير والجمال .



كان يطعم الحمام قبيل الغروب ، عندما روعته صرخات شقيقته ، ولاقته جيهان على الدرج الخشبي وهى ترتجف .. وجد شقيقيه يشتبكان بالأيدى ، ويتصارعان .. تدخل إبراهيم يحول بينهما .. اندفع محمود إلى الداخل وعاد بسكين .. أمسك إبراهيم بيد محمود حائلا بين السكين وصدر محسن .. صرخت الشقيقة ، وأخفت جيهان وجهها بكفيها .. استرخت يد محمود وسقط السكين ، وران سكون رهيب .. نظرت العيون الذاهلة إلى يد إبراهيم .. كانت تنزف بالدماء ، وقد أصابها نصل السكين الحاد بجرح .. أسرعت كريمة تكتم الجرح بعصابتها .. انسحب محمود خارج البيت منكس الرأس ، واختفى محسن بالداخل .. حدق إبراهيم فى الأشياء المبعثرة خارج الحجرة من ملابس وأحذية ومجلات وسأل أسواناً عما حدث .. أخبرته كريمة أن «محمود» يريد أن ينفرد بالحجرة ، وطرد «محسن» منها ، وألقى بأشيائه خارجها .

- هى حجرة واسعة ، منذ ولدا وهما يعيشان فيها معاً .. ألسنا نسميها حجرة محمود ومحسن؟!

- ماعاد أحدهما يطيق الآخر !

- منذ متى ؟

- يتشاحنان منذ غيبك السفر .

صاحت جيهان :

- خالى إبراهيم يفر من مشاكلنا إلى الحمام .. متى أتزوج وأنجو من هذا البيت المشئوم ؟

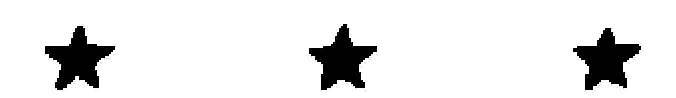
تنازل إبراهيم عن حجرته الخاصة لشقيقه محسن ، وقرر أن يبيت مؤقتاً بالصالة إلى ينقل أشياءه إلى حجرته الخشبية فوق السطح .

وكانت ليلة كئيبة .. ظل إبراهيم مؤرقاً، متوتراً ، متألماً من جرحه. وأفاق من إغفاءة قصيرة كأنها الغيبوبة ، وبدا كالمختنق .. أيقظ شقيقته بعد منتصف الليل ، وحكى لها حلماً رآه ، انتهى إلى كابوس مفزع .. قال إنه شاهد أمه بجوار فسقية من الفسيفساء الملونة ، تتوسطها نافورة ينبجس منها الماء ، وتلفها هالة جميلة .. كان هناك حمام كثير حول النافورة ، وأمه تنثر الحب له .. كان الحمام يلتقط الحب، ولم يكن الحب ينفد .. وكان المصلون فى ثياب بيضاء ساجدين تحت سقيفة ، كأنهم حجيج .. انهمرت طلقات الرصاص على المصلين بغتة ، وكانت تصدر من رشاش .. طار الحمام فزعاً ، وارتفعت الصرخات ، وسالت الدماء .. وهرولت أمه وهى تصرخ ، وغابت فى الظلام .

قالت شقيقته :

- اقرأ الفاتحة لأمك يا إبراهيم .

وقال إبراهيم إنه سيذهب إلى القرية قريبا لزيارتها ، وامتدت يده إلى علبة الأقراص المنومة التى يحملها معه منذ كان مسافراً ، وتناول قرصاً بعد تردد ، وكان أول قرص يتناوله .



أشرقت الشمس على جثث الحمام المتناثرة فوق السطح والدرج الخشبى وأرض الحديقة .. راح إبراهيم يقلب الجثث كالمجنون ، وهو يردد :

- مذبحة بشعة !! قتلوا الحمام ! قتلوا الحمام !

أجهش بالبكاء ، وجمع الجثث فى صندوق ، وقصد فى الضحى إلى معرض السيراميك .. دخله واجماً .. دفع باب الحجرة الزجاجية .. كان المكان خاليا ، وكانت البندقية ذات المنظار ماتزال تستند إلى الحائط خلف المكتب . رنا إليها ، ثم غادر المكان ، وخرج المعلم فايز من خلف الصناديق وترددت أصداء ضحكاته فى أرجاء المعرض .

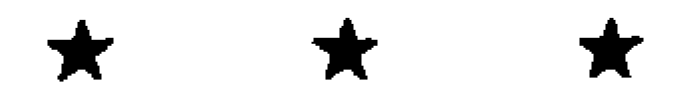
حفر إبراهيم حفرة كبيرة دفن فيها الحمام الصريع ، وعاد يحدق فى الأبراج ملتاعاً . كانت تخرج من كل شرفة وكل نافذة ماسورة بندقية ، وأصاب إبراهيم دوار ، وخر مغشيًا عليه .

أتاه الضابط المتقاعد ، وأخبره أنه صدم بخواء برج الحمام ، وسأله ماذا حدث . أشار إبراهيم إلى الأبراج فى صمت .. عرض الضابط شراء مابقى من الحمام ، ليكون فى حمايته . حدق فيه إبراهيم طويلا :

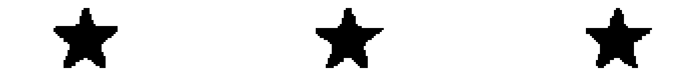
- لم يخلق الحمام ليوضع فى سجن !

- نصحتك بالاحتياط فلم تستمع .. حمامك من سلالة أصيلة .. ربما كنت تحسن تربية الحمام ، ولكنك لا تجيد حمايته والدفاع عنه .

سأله إبراهيم عن الحمامة المستردّة ، فأخبره مضطرباً أنها ماتت بعد مرض قصير . وانصرف الضابط دون أن يُسْمع لأقدامه وقع على الدرج .



اكتشف إبراهيم سقوط زهرات الرمان الثلاث التى يعشق لونها الأحمر ، واختفاء ثمار الطماطم ، فاستبدت به الوساوس الليلية ، وعاد إلى حمل الكشاف ، وتوجيهه نحو الأبراج . استقرت دائرة الضوء المتسعة على كهل يداعب صبية بالشرفة ، واستشعر إبراهيم الحرج ، وضغط زر الكشاف باضطراب ليسود الظلام ، ثم أوى إلى حجرته الخشبية .

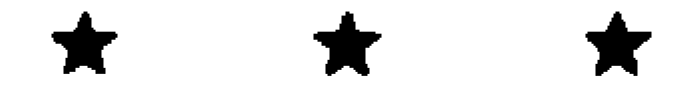


كان يتأمل البرج الخاوى ، وبضعة أفراد من الحمام ، تتطلع هنا وهناك بعيون حزينة ، وكأن كلاً منها يبحث عن إلفه الغائب ، وكان يبدو عليها التوجس . انتبه على ضجة ، ووقع أقدام تكاد تحطم الدرج الخشبى ، وداهمه المعلم فايز وعدد من الرجال يحملون المواسير الحديدية والعصى .

قال له المعلم فايز إن وجوده فوق سطح البيت قد أثار الشبهات من حوله ، وإن سكان الأبراج يرتابون فى نواياه ، وإن برج الحمام ماهو إلا ذريعة ، والحجرة الخشبية مرصد يراقب منه السيدات ، وهن ينشرن الغسيل ، ويجلسن بالشرفات فى ثيابهن الشفافة .

- ألم تكن تسلط كشافك المريب فى الليل على النوافذ والشرفات؟

لم يجب إبراهيم ، ووقف مستسلماً ، والمواسير والعصى تنهال فى غل على الحجرة الخشبية ، والسيدات يراقبن مايحدث من شرفات ونوافذ الأبراج .. صارت الحجرة حطاماً ، والفرن القديم .



وجد جثث ماتبقى من الحمام على السطح ، وقد سال ريالها .. حدق فى الأبراج كأن به مساً ، ونزل وقال وهو يجول بنظراته المرتابة فى شقيقيه ، وجيهان :

- من الذى دس السم للحمام؟!

قالت شقيقته فى إشفاق :

- ربما كان وباءً يا إبراهيم !

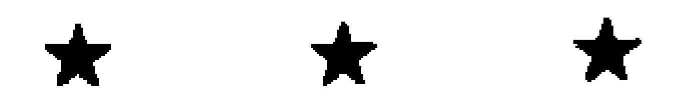
حدق فيها بارتياب ، وصاح فى حدة :

- وزهرات الرمان الثلاث ، وثمار الطماطم ؟!



لم ينج غير زوجين من الحمام ، كان قد تعلما الطيران حديثا ، وضعهما إبراهيم فى قفص ، وركب الأتوبيس ، وقد اعتراه شرود وذبول.. نزل فى المحطة الأخيرة ، وسار على شاطئ ترعة ذات ماء داكن آسن ، تعلوه الطحالب الخضراء ، وعبر جسراً خشبيًا ضيقًا إلى المقابر . كان قبر أمه على الطريق تظلله شجرة كافور . قرأ الفاتحة وماتيسر من القرآن وانخرط فى البكاء .. فتح القفص لزوجى الحمام ، فوقفا فوق القبر لحظات ، ثم طارا ، وأخذا يحلقان فوق المقابر ..

اجتاز إبراهيم المقابر ، ووقف مشدوهًا يشاهد البنايات العالية المتاخمة لها . كانت الشرفات والنوافذ تطل على المقابر ، وكانت هناك سيدات فى ملابس شفافة ينشرن الغسيل ، وكانت هناك مقاعد تصف أمام احدى البنايات ، ومصابيح ملونة تزين الواجهة ، وزغاريد تنطلق ، وموسيقى صاخبة تأتى من كاسيت ضخم .. استدار إبراهيم عائدا ..



عاد إبراهيم ليبيع البيت ، واتفق فى ذات الليلة على الشروط مع المعلم فايز ، وكان المقابل شقة واسعة فاخرة بأحد الأبراج ، ومبلغًا كبيراً من المال .

انتقلت الأسرة إلى الشقة الجديدة ، وشاهد إبرهيم البرج القديم من شرفتها وهو يتهاوى تحت ضربات المعاول ، والبلدوزر وهو يقتحم السور، ويكتسح أمامه شجرة الرمان وحقل الطماطم ، ورأى أنقاض البيت وهى تحمل بعيدا مع الذكريات على عربات النقل . وسرعان ماحفرت الأرض، ووضعت الأساسات ، وارتفع برج جديد عملاق مكان البيت القديم .

★ ★ ★

وزع إبراهيم الأنصبة ، واختار كل من الشقيقين أن يستقل بحياته، وأن يحقق أحلامه بعيداً .. اشترى محمود شقة وأقام «سوبر ماركت» وفعل محسن مثله ، لكنه افتتح محلاً لبيع شرائط الفيديو . وعقد قران جيهان على مهندس إلكترونيات يعمل بأمريكا ، وأعدت أوراق السفر لتلحق به . وفى يوم السفر اصطحبها خالها إبراهيم فى سيارته الخاصة.. كانت تجلس بالمقعد الخلفى كالحالمة . وقالت شقيقته الجالسة بجواره : ماكان يمكن أن يأتى «جى جى» عريس مثل هذا ، لولا سكنانا برجاً عالياً !

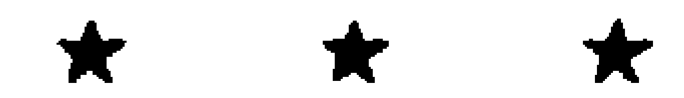
وظل يقود السيارة صامتاً ..

وعندما رجعا من المطار قالت له شقيقته وهى تنشج :

- لقد صرنا وحيدين يا إبراهيم بعد سفر جى جى !

نظر إلى شعرها المصبوغ باللون الأشقر الذهبى ، وإلى وجهها الذى تغطيه المساحيق ، وإلى فستانها الأنيق ، وابتسم بلا مبالاة واستغراب . دخل حجرته ، وأغلق عليه الباب . خلع ملابسه ، فبدا جسمه وقد ترهل كثيراً . ارتدى البيجاما ذات النسيج الأملس البراق ، التى تحمل على الصدر صورة لبطل سينمائى عالمى ، عارى الذراعين ، يقبض على المدفع الرشاش ، مستعرضاً عضلاته القوية ، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة .

وفى تلك الليلة ، مثل كل ليلة ، عطر إبراهيم جو الحجرة المكيفة من علبة «الإسبراى» برائحة الياسمين ، وامتدت يده إلى علب الأقراص الكثيرة المتناثرة فوق المنضدة .. اختار علبة ، وابتلع قرصاً . وضع شريطاً فى جهاز الفيديو ، وأداره ، واسترخى فى المقعد كالمخدور ، وهو يمسك «بالريموت كنترول» ، وأمامه رجلان قويان عاريان تقريباً يتصارعان فى شراسة . يسدد أحدهما اللكمات إلى وجه الآخر . يسقطه أرضاً . يسيل الدم من فمه وأنفه مخضباً بساط الحلبة ، ومازال يركله بوحشية ، ويضغط عنقة بحذائه ، وذراعه مرفوعة فى زهو ، والمشاهدون من حولهما يصيحون مشجعين . بدا أنه صراع حتى الموت، وإبراهيم يحملق ، ويقضم تفاحة حمراء فى تلذذ وبلادة .



سقوط ثمرة وحيدة

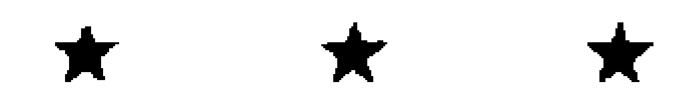
1

كنا فَرِحَيْن بما حدث بعد طول صبر وانتظار . فرحة زوجتي كعهدي بها . فرحة هادئة أليفة . أما فرحتي فمن نوع خاص جداً وفريد . فرحة برية . مضنية . تثير كل خلية من خلايا جسدي وكل كريَّة من كريات دمي ، فتتقافز وتتصادم وتبقى في حركة دائبة . أتحول إلى كائن غريب شديد التوجس والقلق .

أتأمل وجه زوجتي . من لها هذه الطاقة الهائلة من الدفء في عينيها والحنان والاحتواء لم تخلق الا لتكون أماً .

- لقد كنت تحملين طفلنا الآتي طوال سنوات الغربة ولاتشعرين . عشر سنوات وطفلنا يرقد في سكون . يترقب مثلنا لحظات العودة والأمان ، ليعلن عن وجوده ويولد على أرض الوطن .

تبتسم زوجتي في براءة واندهاش .



صوت أمي هو الآن أقدر وسائلها للتعبير عن المشاعر . لم يزل على صفائه وانسيابه من القلب .

- كنت أتمنى أن أرى طفلك وأحمله على كتفى . تأخرتما كثيراً حتى راحت عافيتى وانطفأ نور عينىَ .

تختلج قسمات وجهها :

- كل شئ بارادة الله .

★ ★ ★

شجرة اليوسفى هى الوحيدة الباقية فى المساحة الضيقة من الأرض عند مدخل البيت . استوقفتنى الثمرة الوحيدة حديثة التكوين . كانت مجرد حبة صغيرة الحجم خضراء اللون . مرض أمى وانشغال شقيقى محمود يبدوان بجلاء على الشجرة والمكان . أنظف حول الساق . أروى الشجرة بالماء . يدخل محمود وفى يده شريط ڤيديو .

قلت له بدهشة طفولية :

لقد أثمرت الشجرة !

- ثمرة واحدة .

- المهم أنها أثمرت . لم تنسَ أنها شجرة وهذا موسم الإثمار . تريد أن تقول للدنيا أنا موجودة ولم أزل قادرة على العطاء .

- الجو هنا لايسمح بنمو ثمرة واحدة .

يقصف فرعا من الشجرة :

- لقد شاخت ولم تعد قادرة على حمل ثمرة واحدة .

- هل تعلمت هذا فى كلية الزراعة ؟

يفرك الأوراق بين أصابعه :

- أتظن أننى بعد خمس سنوات من التخرج والجلوس فى البيت أذكر شيئاً تعلمته ؟

وألقى بفتات الأوراق الخضراء على الأرض .

★ ★ ★

الأهل والأصدقاء يتوافدون على البيت ويهنئون بسلامة العودة . عناق ، شفاه تطبع قبلات تشعرنى بملمس جلود الضفادع .

أوشكت حقيبة الهدايا على النفاذ .

قال زوج شقيقتى :

- كنت أصحب الست الوالدة إلى الأطباء واشترى لها الدواء بنفسى .

وقالت شقيقتى :

- وأنا لم أترك أمك يومًا واحداً .

تحسّس زوج شقيقتى قطعة القماش بين أصابعه :

- سأصنع منها بدلة صيفية .

راح يطويها بعناية وحرص شديدين :

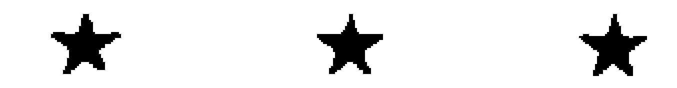
- أجازة أم عودة دائمة ؟

- كفانى عشر سنوات غربة .

صاح وهو يدس قطعة القماش فى الكيس البلاستيك :

- غلطان يا مجدى ! والله غلطان !

انتحيت بشقيقتى جانباً وأعطيتها مبلغاً من النقود وكان زوجها يختلس نحونا النظرات .

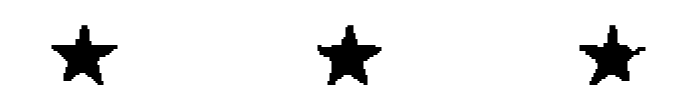


شريط الفيديو الذى استعاره شقيقى محمود من صديق له يعمل .

تتوالى اللكمات العنيفة . يسقط الرجل على الأرض . يركلونه بأقدامهم . تتركز الركلات الوحشية فى منطقة البطن وتنبثق الدماء من فمه . يقذفون الرجل فينفذ من زجاج النافذة وتتناثر الشظايا ويهوى من ارتفاع . يصب محمود الشاى فى كوبه . ويشهق البراد وهو يلفظ قطراته الأخيرة .

- طبعا ستأخذان معكما الفيديو إلى الشقة الجديدة !

نتبادل وزوجتى النظرات فى صمت . تنسحب زوجتى إلى حجرتنا من البيت وتغلق الباب بهدوء .



كوّم محمود القمصان التى أهديتها إليه وألقاها أمامى .

- لماذا لم ترسل لى عقد عمل ؟ ألم تكن تصلك رسائلى؟

- لقد أرسلت إليك عقداً .

لم يكن مناسباً .

- سمعت عن الأراضى التى تملكها الدولة لخريجى كليات الزراعة .

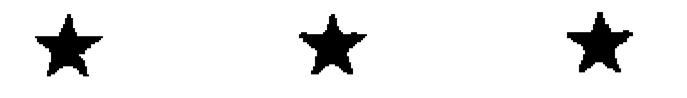
ابتسم ساخراً :

- وهل سمعت عما يحدث لهم؟

نظرت إليـــه فى دهشـــة . وحكى لى عن زمـــلائه الذين جـــفت مزروعاتهم بعد أن قطعوا عنها مياه الرى وعن الجهات الحكومية العديدة التى ظهرت فجأة لتنازعهم ملكيتها . حدثته عن المشروع الذى أفكر فى إنشـــائه . طلبت منه أن يشـــاركنى بالرأى والعـمل ، وأن يقـتـرح علىّ مشروعـاً صغـيـراً على قدر ماتبقى من مدخراتى بعد سداد ثمن الأرض وأقساط الشقة .

قال بلا مبالاة :

- أقترح أن تضع فلوسك تحت البلاطة وتجلس مستريح البال .



تقول زوجتى :

- متى نذهب إلى شقتنا الجديدة ؟

أمسك يدها :

- لا تغضبى من محمود . لم يزل فى عينى ذلك الصغير المدلل . أنا أشعر أنه ابنى .

- أنا لا أفكر هكذا ! أنت لاتعرف الأشياء البسيطة التى تسعد المرأة . ستارة جديدة تشتريها لشباك شقتها الخاصة . قطعة أثاث أو حتى تغيير موضعها .

وأعدها بسرعة تشطيب الشقة .

★ ★ ★

للطلاء الجديد رائحة ذات سحر غريب . أشعر لها بخدر جميل ونشوة .

- هل تصدقين أن بعض الناس يدمنون شم مثل هذه الروائح وأخاف أن أدمنها ؟

قالت فى انزعاج :

- هل هذه الرائحة خطر على الجنين ؟

أضحك ونتجول فى الغرف التى ماتزال خالية .

- الصالون هنا . الأنتريه فى الصالة ..

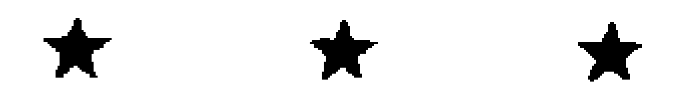
وتتعثر فى علب الطلاء الفارغة . وأحتويها بذراعىّ . تبتسم . تضع يدها على بطنها :

- ابنك فى الحفظ والصون !

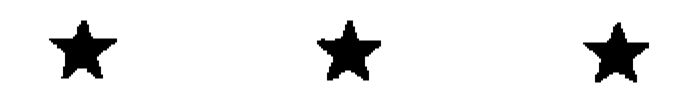
نفترش أوراق الجرائد . ونجلس فى حجرة النوم التى سوف تكون ، تنتابنى الفرحة البرية التى أخشاها . أتأمل وجهها ويغرينى السكون .

أمسك يدها . تبتسم وتتلفت حولها متوجسة . تشير إلى الشباك المفتوح :

- سأشترى بنفسى قماش الستائر وأختار الألوان وسأصنعها بيدى.



أرض المشروع . عشش من الصفيح وأكوام من القمامة لم تكن موجودة فى الإجازة الماضية منذ عامين . صغار فى ملابس قذرة . فتيات يحملن صفائح المياه . رجال ونساء يجلسون ويحدقون فى بلادة . شبان يتحدثون بألسنة معوجة ولغة لم آلفها وعيون شاخصة ذابلة .



قلت للضابط :

- أرضى !

قال فى هدوء شديد :

- سنحرر محضراً .

- لقد شهروا فى وجهى المطاوى .

- من الأفضل أن تحاول استرداد أموالك ممن باعوا لك ، وأن تبحث عن أرض بلا مشاكل .

- والقانون ؟

- ستأخذ حقك طبعاً ولكن ستطول الإجراءات .

أرجع وتريني زوجتي قماش الستائر وأتأمله في صمت .

★ ★ ★

تصرُّ زوجتي على أن تصحبني إلى الشقة لتشاهد عمال الألوميتال الذين سيأتون لتركيب الشبابيك . تقول إنها تحس بالسعادة وهي ترى الشقة تكتمل جزءاً جزءاً أمام عينيها .

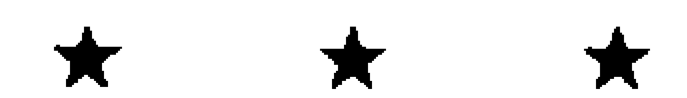
أمام العمارة زحام وضجيج . عربات شرطة . ضباط وعساكر يمنعوننا من الاقتراب . أصوات مطارق . كسارة الطوب الأحمر تنهال من أعلى . جدران الشقة مبقورة وشائهة . زوجتي ذاهلة واجمة .

وقيل لي إنهم ينفذون القانون .

وتبكي زوجتي .

★ ★ ★

زوجتي بجواري والسيارة تمضي في الشارع المزدحم . الجو حار . خانق . كئيب . ألحظ وجهها المرهق الذابل والشعرات البيض في مفرقها . وبطنها المرتفعة قليلاً . تقول إنها تحس بألم في البطن وينتابني قلق شديد . أواصل السير . تخبرني أن الألم يشتد ، وأن التقلصات تتحول إلى انقباضات مخيفة ، وأنها تنزف . أحسُّ بالضياع وأنا أجول عبر الشوارع أبحث عن مستشفى .



سيـــوف من ورق

كـان النزال قـد بدأ وأنا أندفع إلى داخل القـاعـة لاهثـا .. أبـحث عنها .. أشرئب محاذرا .. تهدأ أنفاسى وأنا أراها لم تزل هناك . أنشغل عن الضـجـيج والصـراع ومن مكانى البعـيد أختلس إليـهـا النظرات .. أشعر بها جافلة ، مستوحشة ، حائرة ، نافرة .. الملكة هي الملكة وأن مشت بين الناس في الأسواق .. تتلفت .. تجول بعينيها بين الوجوه .. تنجذب إلى عينيها عيناى .. تومئ إلىّ برأسها .. استدعاء واثق قادر .. يقتحم أذنى الصوت الصارخ من وسط الزحام : رقم ٢ وأنا أباعد ما بين الأجساد مشدودا إليها .. أقف أمامها متوجسا .. تتشكل قسمات وجهها غضبة : لماذا عدت ؟! لتودعنى الوداع الأخير ؟ لتشهد لمن سوف أكون ؟ للغالب سوف أكون .. لهذا أو لذاك .. ماذا يهم ؟ ألم تكن هنا منذ قليل والعيون الوحشية الجائعة تنهش جسدى وتفتش في أعماقى ؟ لماذا فررت ؟ لم لم تفعل شيئا من أجل مليكتك المحرمة على كل العيون ؟! الآن فهمت كل شئ .. لكن مازالت هناك فرصة ... فرصة للتحاور .. لاتفهم غير هذا ..

تصمت ... تهدأ ... تصير القسمات عتابا : أمن أجل هذا جئت بى إلى هنا ؟ هل هنت عليك؟ أعلى نفسك أم علىّ كنت حريصا فى الماضى عندما كنت تخفينى عن كل العيون؟ ألأننى كنت زوجة؟ هل كنت تخشى انتقام زوجى؟

يرتفع الصوت من وسط الزحام : رقم ٣ وأنا أمد يدى صوب الحاجز الفاصل بيننا : لا .. لم أكن لزوجك خصما فأخشاه .. كنتما على شقاق، وكان بينكما جفوة من قبل أن نلتقى .. أنت التى قررت كل شئ..

- نعم أنا التى قررت ، ولست نادمة على شئ .. ماحدث كان سيحدث وإن لم نلتقِ .

أشعر أننى أكثر شجاعة وهى تسقط عنى وزراً ثقيلا .. أدنو منها أكثر .. أرنو إليها .. أتلمّس الحاجز الصلب الشفاف الأملس : لقد أحببتك .. توجتك على القلب مليكة .. بلغت فيك ما أعتقد أنه الكمال الذى لا كمال بعده فى استطاعتى فلماذا أستعير عيون الآخرين؟ ما الذى تقدر عليه كلمات الاستحسان؟ أعترف أنها كانت أنانية منى.. أنانية غريبة على أى فنان .

تصنع القسمات ابتسامة مريرة : أحببتنى وأحببتك ولم يأت الحب بجديد . هل تذكر يوم أتيتك حرة ، طائرة ، طليقة؟

- كم كنت غريبة ذلك اليوم ! عدوت إلى كل الشبابيك تفتحينها وقلت بفرحة الأطفال : أستطيع الآن أن أتنفس ! ثم ألقيت بشالك الأحمر..

– ورحت أدور وأدور حول نفسى ..

– كنت فى ثوبك الوردى مثل راقصة باليه بارعة ..

– مثل طفلة مجنونة .. وكانت غادة تحملق فىّ بدهشة وأنت فى ذهول ترقبنى .. قلت لك وأنا ألهث وأتصبب عرقا وأضحك : لقد صرت الآن لك وحدك .. لم تبدُ عليك السعادة ! نسيت أن الحرية التى جاهدت من أجلها حرية ناقصة .. نسيت أننى أم لطفلة .

ينادى الصوت : رقم ٤ وأنا أمسح الحاجز بأناملى : ما كان للطفلة أن تحول بينى وبينك .. تعلمين كم أحببت غادة .

– هى أيضا تعلقت بك .. لم يغب هذا عن مشاعرى كأم .. كم كنت سعيدة وأنا أراك تحنو عليها ، وأحس أننى قد أحسنت اختيار أب جديد لها وأسأل نفسى لماذا لا يجمعنا بيت واحد ؟

– البيت ليس جدرانا .

– لقد خدعت فيك ! كيف نسيت أنك فنان؟ تحمل الفصول الأربعة: تصفو وتمطر .. تورق وتذبل فى نفس اللحظة .. ولم أكن فى حياتك سوى نزوة . مادة لعمل جديد .. مثل أية بائعة أو متسولة تلقاها فى الطريق .. مثل رقم ٥ تلك أو رقم ٧ .. أنا رقم ١٠ .. الورقة الصغيرة الملصقة على صدرى تقول هذا .

أطرق بكفى الحاجز : لا .. ليست هذه هى الحقيقة .. ربما كنت فى البداية وجها جميلا فتنت به ، فاستأذنت فى امتلاكه ساعات أو أياما.. وبعد ذلك تمنيت أن تكون كل رباب لى إلى الأبد ..

- وماذا كان يمنعك؟ لماذا رحت تراوغ وتتذرع بالمستقبل المجهول؟ إلى هذا الحد كنت متشائما ؟

- كنت مشفقا عليك وعلى غادة منى .. أخشى أن أخاطر بكما معي وننتهي إلى التعاسة والندم .. لقد تعودت غادة على الحياة الناعمة .. ألم يكن أبوها ضابطا كبيرا وثريا ؟

- كان وحشا كبيرا مثل هذه الوحوش الصارخة .

- كنت تريدين إذن أن نحمل حبنا كل ليلة ونطوف به من شارع إلى شارع فى سيارتى القديمة ونتسكع أمام الحوانيت ونشترى بالحب خبزا ..

- وعدتنى أن تبحث عن وظيفة ولم تكن جادا ..

- وظيفة ! أية وظيفة؟! هل للفنان سوى الفن وظيفة؟

- كان لدى نقود تكفينا حتى تعثر على وظيفة تناسب فنانا عظيما !

- تأبى على كرامتى أن أكون ظل رجل ..

- وكرامتى؟ هل كان لديك اسم لما بيننا؟ ماذا أنت؟ ماذا أنا؟ صديقان؟ عاشق وعاشقة؟

- كان احتجابك وابتعادك يأساً منى .

- لم أفقد كل الأمل ... كان احتجابى وسيلة لاختبار المشاعر وإتاحة الفرصة أمامك لكى تحدد موقفك .. كان أيضا لإثارة الحنين .. ولعقابك ..

- ياله من عقاب! كم بحثت عنك وكنت أعود فى كل مرة وحيداً..
وكانت المفاجأة : طرقات مترددة .. حانية .. رقيقة على بابى وأفتح لأراك أمامى!

أسمع ثلاث دقات متتالية رتيبة ويرتفع الصوت رقم ٥ ، وتطل رباب وتلتفت : هذه رقم ٥ .. أعرفها .. لقد حدثتنى عنها ذات مرة .. ذات الجلباب البلدى الأسود والمنديل البراق الأحمر والعقد ذى الحبات الكبيرة الصفراء السمراء ذات الابتسامة النقية والعيون الشجية .. أليست هى تلك البائعة التى أعجبت بها ذات يوم؟

تصمت وأتابع معها النزال .. تشتعل المبارزة .. مبارزة ذات شكل جديد وفرسان من هذا العصر بغير ملابس الحرب يتبارون بالورق : ملونا .. مزينا .. مصقولا .. براقا .. حادا .. ماضيا . باترا ..

- خمسين .. خمسين ..

يصمت الجميع .. يقفز صوت : واحد وخمسين .. أسمع الدقات الثلاث الرتيبة ويرتفع الصوت رقم ٦ ..

تبتسم رباب : ما أرخصها! والله تساوى أكثر .. لكنها قليلة البخت أو غريرة ساذجة بلهاء! اختطفها الوحش البدين الذى يرتدى البدلة الكاروهات الملونة من الآخر ذى الجلباب والحذاء القذرين ، الأسمر النحيل .. لا أراه حزينا عليها . يبدو أنه تاجر ماهر خبير من عاشقى الأشياء القديمة! أرأيت؟ جنيه واحد قد يحدد المصير .. يوم واحد .. لحظة واحدة .. هل تذكر ليلة رجعت اليك؟ قلت لى وأنت تقبض على

يدى : لنتــزوج الآن .. ضـحكت من جنونك .. قلت لك : ألا يمكن أن ننتظر حـتى يتـوقف المطر؟ ألا يمكن أن ننتظر سـاعـات حـتى تشـرق الشـمس؟ ألا يمكن أن ننتظر إلى مسـاء الغـد؟ قلت لى إنك سـتبـيع السيارة القديمة لتشترى بعض الأثاث الجديد من أجلى .. قلت لك : أنا لا أريد شيئا .. كم كنت أحب تلك السيارة .. سيارة الذكريات والضياع والأحلام .. كم كنت سعيدة وأنت تتحدث فى حماس غريب عليك عن حياتنا المقبلة وعن الوظيفة الجديدة التى سعت إليك .

- كنت مترددا فى قبول تلك الوظيفة وكانت رساما فى مجلة ولكن عودتك المفاجئة حسمت الأمر .. وعاد غيابك من جديد ليطيح بكل شئ ويردنى إلى الضياع والظنون .. وكانت مفاجأة أن تعودى مرة أخرى بعد شهور متشحة بالسواد وترتدين الحداد .. وعندما خلعت النظارة الكبيرة والإيشارب الأسود ، أطلت الحقيقة أكثر بشاعة مما كنت أتصور :

هذا ما نجا من الحريق .. كان اللهب يحاصرنى وأنا أصرخ وأبحث عن غادة .. فقدت كل شئ .. ابنتى .. بيتى .. صورى القديمة .. احترقت رباب الجميلة .. لم تعد إلا ذكرى .. ولوحة كبيرة فى أطار جميل أسيرة خلف الزجاج . أرأيت كيف أن الفن خلود ؟ قررت العودة بعد تفكير طويل.. ماهى إلا زيارة عابرة أخيرة لتعرف كل الحقيقة .. تعرف وحسب.. انتظرت شهورا حتى ألقاك فى أحسن صورة ممكنة .. اخترت الإقامة بمستشفى خاص منعزل وطلبت أن يظل وجودى به سراً . لم يكن فى استطاعة أطباء وجراحى التجميل أن يفعلوا أكثر من ذلك.. ما رأيك؟

يرتفع الصوت : رقم ٧ .. يتشكل الوجه شجنا .. يطول الصمت.. يطغى ضجيج النزال .. أهمس بصوت مختنق : ليتك بقيت معى ..

- لا تحاول خداعى أو خداع نفسك .. الفنان ينشد الجمال الكامل .. لم أعد الوجه الجميل الذى عشقت والجيد الرائع والروح المرح فمن أين آتى إليك بابتسامة؟ حسبك اللوحة إذا أردت رؤية رباب الجميلة .. استحلفك بكل غال لديك أن تحتفظ بها وأن أظل مليكتك المحرمة على كل العيون حتى عيونى ! أقسم أننى لو وقعت عيناى على تلك اللوحة فسأشعل فيها النار .

أسمع الدقات الثلاث الرتيبة ويرتفع الصوت : رقم ٨ ويتشكل وجه رباب قلقا وخوفا .. لم أرها من قبل ضعيفة هكذا .. مكسورة ، راجية، متوسلة : لم يفت بعد يا حبيبى الأوان .. يمكنك التراجع .. لم لا تعود بى إلى مملكتى؟ لم لا تحملنى بين ذراعيك وتطير بى إلى عرشى؟ الذكريات هناك .. الأمان هناك .. والحب والمصابيح .. المصابيح الموضوعة بدقة وعناية .. بزوايا محسوبة .. بمسافات مضبوطة .. فى كل ركن .. تضئ فتمضى إلى مواضعها منى الأضواء .. اللؤلؤى لجيدى .. الوردى لخدى .. ولشعرى الضوء الذهبى ولعينى الأزرق .. أنسيت طقوس الحب فى حضرة مليكة القلب؟ لِمَ لانمضى معا فنضئ المصابيح وننشر العطر ونذير الموسيقى ونجلس سوياً نتسامر؟

أطرق ممزقا .. محطما .. عاجزاً .. تصيح رباب : ماذا يمنعك؟ هل صارت رباب مثل سجادة بالية أو قطعة أثاث من طراز قديم .. ألا يأتون بمثل هذه الأشياء إلى هذا المكان؟

- كفاك يا رباب .. كفاك .. ألم أقل لكم يوماً إن حياتى مغامرة كبيرة .. هذه هى النتيجة : فشل .. ديون .. ضياع .. ماذا يساوى الفن؟ ماذا يساوى كل هذا الورق وليد المعاناة والإحساس والتأمل .. الورق المسالم الوادع المفعم بالحب والجمال والنبل؟ لقد رسمت أجساد الراقصات لتوضع أمام أبواب الملاهى .. رسمت الأحذية فوق الواجهات .. رسمت البوم والجمال والثعالب والثعابين والغربان على لافتات النسيج أيام الانتخابات .. رسمت الهرم مقلوبا .. كل هذا لكى أعيش .. أريد أن أبدأ من جديد فى مكان بعيد .. ربما أرحل أو أهاجر قبل الانفجار .

يدوى الصوت : رقم ٩ ، وتبدو رباب ذاهلة شاردة مستسلمة .. تتكلم كأنها تهذى : دورى هو القادم .. أنا رقم ١٠ .. أنا الملكة التى أمست جارية .. هل ضاع الأمل؟ لا تلمنى .. سأفعل ما أشاء .. سأكشف للجميع عن مواهبى .. سأعرض عليهم مفاتنى التى لم ترها أنت نفسك .. سأخلع ثيابى قطعة قطعة . سأشعل النزال .. سأزيد نهم هذه الوحوش المتصارعة الجائعة المسعورة . سأرقص وأغنى وأحطم القوارير والكئوس كل هذا من أجلك .. من أجلك أنت .. يا سيدى! يخترقنى الصوت المنبثق من وسط الزحام : رقم ١٠ .. تحلق العيون كل العيون وعند جيدها تتلاقى .. اتفاق صامت على حسنها المستحيل . تزحف نحوها الأجساد تتحلق حولها . تحاصرها . يقف الرجل البدين فى مواجهة الآخر ذى الجلباب القذر يتبادلان نظرات التحدى .. يتأهب الجميع للنزال .. تأمرهم رباب أن يتمهلوا وينصتوا .. ينظرون إليها

مشدوهين .. تصيح وهى تشير إلى الرجل الطويل الممسك بالمطرقة الخشبية الصغيرة : دعونى أعلن عن نفسى .. هذا النخاس لايعرف شيئا عنى .. أنا رباب الجارية .. أجيد العزف على الأوتار والغناء وأحفظ الأشعار وأعرف كيف أسعد مولاى السلطان .. من منكم يشتاق لدور السلطان؟ أنا للمنتصر الغالب ولمن يدحر كل الفرسان ويتراب الذلة يملأ كل الأفواه .. تلقى بشالها الأحمر . تزيح عن كتفيها الرداء الوردى .. تبتسم فى دلال : هذا الحسن لمن يدفع أكثر .

يبدأ النزال .. تتأوه .. تضحك فى خلاعة .. تشق عن صدرها الرداء .. يبرز نهداها .. تبصق .. ترتفع الأرقام : مائة .. مائتان .. تتضخم .. يحتدم الصراع . يشتعل السباق .. يسقط المتبارون الواحد بعد الآخر .. لا يبقى فى الساحة إلا غريمان : الرجل البدين وذو الجلباب القذر ... تنضو عن جسدها الرداء الوردى ثم الغلالة .. ترقص عريانة . تشتعل فيها النار .. تدور وتدور حول نفسها فى جنون .. تصرخ وتصرخ : غادة .. غادة .. تتحول إلى كتلة متوهجة صارخة .. يستعر النزال بين الرجلين .. يهدأ الدوران شيئا فشيئا .. تقف لاهثة مترنحة .. أحدق فيها : أرى الوجه المتصلب الذى لفحته النار والجيد الشائه المخيف وجلده المنكمش ولونه البشع الغريب .. أصنع من جسدى حائلا بينها وبين العيون .. أصرخ : هذه اللوحة ليست للبيع .. هذه اللوحة ليست للبيع .. لايتوقف سعار الأرقام .. يضيع صراخى وسط الضجيج وهمهمات الاحتجاج .. يصرخ الرجل ذو الجلباب القذر : ألف جنيه .. تتوجه نحوه كل العيون .. أصيح : ليست للبيع .. ليست للبيع ..

ينسحب الرجل البدين مهزوما .. أرنو إلى المطرقة الخشبية الصغيرة تتأرجح في الهواء .. يطعننى الصوت : ألف جنيه . أهمس : ليست للبيع .. يكرر الطعن : ألف جنيه .. أتكتم الألم .. أتمتم : ليست للبيع. تعاجلنى الثالثة : ألف جنيه .. يرتفع الصراخ فى داخلى : ليست للبيع .. يتردد صداه يخفت .. يتلاشى .. يرجمنى صوتها : لم أعد لك.. لم أعد لك وأنا أباعد ما بين الأجساد وأشق طريقى وسط الزحام نازفا ، طعينا ، جريحا ، ذبيحا . وترتفع الدقات الثلاث الرتيبة .



هــــلــيــــر



عاودتنى حالة الوجد والحنين أياماً قبل أن أسمع صوتها عبر التليفون .أخبرتنى أنها عادت من السفر فى إجازة قصيرة ، وأنها تريد لقائى ؛ لتحدثنى عن فرصة رائعة جاءت بها من أجلى .

أتشاغل بالعمل ، ولكن كل ما حولى من أشياء يذكرنى بها : الزجاجات ، أنابيب الاختبار ، روائح المحاليل والمساحيق .

هدير .. صانعة المراكب الورقية الماهرة . تتحول الورقة - أية ورقة - بين يديها إلى مربعات صغيرة . تطويها وتبسطها لتكون مراكب . لا أدرى كيف تصنعها بكل هذا الدأب والإتقان ، لتكون رقيقة هكذا ، وصغيرة جداً هكذا! . تتراص المراكب أمامى على منضدة الكافتيريا . أجمعها وأحفظها مطوية بين صفحات الكتب ودفاتر المحاضرات ، وتمتلئ بها أدراج مكتبى .

هدير .. التى تكتب كلماتها الرقيقة بخطها المنمنم الجميل فى الأعياد والمناسبات السعيدة على العملات الورقية الجديدة المصقولة من فئة الخمسة والعشرة قروش ، وتهديها إلىّ ، وتحذرنى باسمة من أن عملاتها الورقية غير قابلة للتداول .

هدير .. صانعة الحلى والخواتم البارعة من أوراق الشيكولاتة الفضية . تصنع حلقتين وتتركهما أمامى . أنظر إليهما فى صمت . تضع حلقة فى إصبعها ، وتنظر إلى وجهى وتبتسم .

مدرج المحاضرات وهدير بجانبى . الأستاذ يشرح التفاعلات الكيميائية ، ويرسم حلقات سداسية متشابكة ، متلاحمة ، وأخرى خماسية ، تتفرع منها روابط وأذرع ، تمتد لتتعلق بحلقات أخرى ، وتكون مركبات ذات ألوان بهيجة .

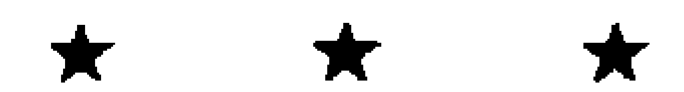
تنتهى المحاضرة وأخرج مع هدير وسط حشود الطلاب ، وأفكر فى المستقبل المجهول الذى ينتظرنا جميعاً ونحن على وشك التخرج .

الشارع .. زحام .. تيار لاينقطع من السيارات . تعبر هدير من بين السيارات فى جسارة ، وتصل إلى الجانب الآخر . تناديني . تلوِّح لى بيدها مشجعة . أسرع الخطى إلى إشارة المرور البعيدة . أنتظر الضوء الأخضر لعبور المشاة . أعبر من فوق الخطوط البيضاء وأجدها فى انتظارى . تلقانى دَهِشَةً ضاحكةً :

أرأيت كيف اضطررت إلى الرجوع كل هذه المسافة؟ لماذا تصر دائماً على العبور من فوق الخطوط البيضاء؟ ألا تلاحظ أن أكثر الناس يعبرون من بين السيارات ، وأحياناً يقفزون من فوق الأسوار ، ليختصروا الوقت والطريق ، ويصلوا مباشرة إلى الهدف .

- أعتقد أننى أفعل الصواب .

ترمقني باستغراب ونواصل السير . تخطر ببالي مشاهد من الماضي: أنا وأصدقائي نسير على الطريق الترابي الطويل ، حاملين أعواد البوص ، ونصل إلى الترعة بعد رحلة شاقة . يتفق الصغار على أن السمك الكبير لايتواجد وفيراً إلا على الضفة الأخرى . ويعبرون على ماسورة تعلو مجرى الترعة . يسيرون فوقها بعفوية وبساطة . يعبرون بعضهم وراء بعض في قطار مرح ضاحك . *أحدق في المياه الداكنة . أنفذ بخيالي إلى القاع السحيق . تصير وشوشات الماء أصواتاً* هادرة مخيفة . تطغى على أصوات الرفاق الذين ينادونني مشجعين من الضفة الأخرى . تتباعد المسافة بين الضفتين ، وتتناءى أياديهم الصغيرة التي تلوح لي مستحثة . أتطلع إلى الجسر الخشبي البعيد . أتذكر الولد البدين المشاكس الذي يكمن هناك ، ويخرج فجأة من الحقل القريب ، ليخطف سنارتي ويكسرها ويلقيها في الماء . يشتد حر الشمس ، وأبقى وحيداً ظامئاً على شاطئي ، متوجساً من ظهور الولد المشاكس في أية لحظة، وسنارتي اليائسة في الماء . أشاهد الصغار هناك تحت الأشجار الظليلة يصيدون ، ويعودون على ذات الماسورة الرهيبة ، وسلالهم ملأى بالسمك الكبير . وأسمعهم يتضاحكون ويتحدثون عن المرأة الجميلة التي تستحم في العشة البوص على الشاطئ الآخر .



أنظر في ساعة الحائط . موعد هدير يقترب ، وتتأهب المشاعر لاستقبالها . أحاول العمل . أمازج بين المحاليل ، وتتفجر الألوان حمراء وزرقاء وبنفسجية داخل أنابيب الاختبار .

معمل الكلية .. أحدق فى اللون البرتقالى الذى تفجر فى الأنبوبة بدهشة إنسان بدائى . وهدير فى معطفها الأبيض الناصع تبتسم :

– مجرد تفاعل كيميائى .. اقتران بين مركبين بشروط معينة !

– كل هذا الفن ؟! تلك الاستعراضات المبهرة من الألوان . أعداد لا متناهية من الحلقات تتحرك وتتقافز وتتلاقى ، وتمد الأذرع وتتشابك وتنسجم وتتناسق فى زمن مذهل لتكون الألوان .

أمسك الأنابيب وأحدق فيها بنفس دهشتى القديمة .



أفاجأ بهدير أمامى . أفاجأ بها على الرغم من الموعد المسبق وتوقع اللقاء . يبدو أنها دخلت منذ لحظات . أتأملها فى صمت : حقيبة يدها الصغيرة تتدلى من كتفها بحبلين طويلين مثل تميمة . القرط زهرتا فل صغيرتان تلتصقان بأذنيها . الساعة كائن صغير جميل يلتف حول معصمها . دائماً تنسجم أشياؤها مع قسمات وجهها وقدها النحيل فى رشاقة . لا تخرج عن القاعدة إلا عيناها الواسعتان .

– أسافر وأترك لك العناوين فلا تسأل ! أرسل إليك الخطابات . أتصل بالتليفون وأذكرك بالعناوين ولا ترد ! لكننى ألتمس إليك الأعذار . أعرف كم تعشق الزجاجات وأنابيب الاختبار . وما تزال مبهوراً لتكوُّن الألوان .

تمسك بأنبوبة اختبار عليها سدادة :

- كما توقعت . كنت أعرف أننى سأجدك هنا !

وتشير بإصبعها إلى أنبوبة الاختبار .. تزفر :

- كيف تطيق العمل فى هذا الجو الخانق ؟

تسرع إلى النافذة . تفتحها . تضع حقيبتها التميمة على المنضدة الطويلة . تدنى مقعداً وتجلس قبالتى . تخرج من حقيبتها ورقة من فئة الدولار . تكتب عليها وتقدمها إلىّ :

- كل سنة وأنت طيب !

أنظر إليها بدهشة .. تبتسم :

- عيد ميلادك كان أول أمس !

تمسك بورقة وأراها تمارس هوايتها فى صنع المراكب . لكنها تصنعها الآن فى سرعة أكثر وتتحدث :

- دفعت آخر قسط لشقتى الجديدة .. شقتى الآن مكيفة ، ومجهزة بأفخم الأثاث .. اشتريت سيارة صغيرة ..

تضم شفتيها وتصفر :

- روعة !!

تتراص أمامى بضعة مراكب صغيرة . وتخرج هدير قطعتين من الشيكولاتة . تقدم لى واحدة ، وأتأمل أصابعها التى ماتزال خالية من الحلقات ، وهى تشكل الغلاف الذهبى اللين :

- خالى جاء بعريس .. على استعداد لأن يسافر معى .. بابا وماما وأخوتى يرونه مناسباً وموافقون عليه ..

أدارى قلقى :

- وأنت ؟

تترك الحلقتين أمامى :

- حائرة !

تصنع هدير مراكب جديدة ..

- عندى لك فرصة رائعة .. عقد عمل .. فى نفس المكان الذى أعمل به .. سكن مكيف ومجهز بأحدث الأثاث .. راتب عالٍ .. سأقول لك كم يساوى بالجنية المصرى .

تخرج آلة حاسبة صغيرة من حقيبتها . تضغط الأزرار فى سرعة ودراية . تذكر رقماً ، وأنا ألوك كالمخدور قطعة الشيكولاتة المستوردة ذات النوع الفاخر جداً والطعم الغريب .

تهمس :

- سنكون هناك سوياً .

أطرق ، وتقول :

- ألا تحب أن تسافر معى؟

أحدق حائراً فى المراكب الورقية الساكنة التى بلا أشرعة أو أمواج، وفى الحلقتين الورقيتين . تعلو نبرات هدير :

- هل أنت راضٍ عن حياتك هذه؟! كم مضى على تخرجنا الآن؟ عشر سنوات؟

- تقريباً .

ألا تشعر بمرور الزمن؟ ماذا حققت؟ ماذا يمكن أن تحقق إن بقيت هنا طوال عمرك؟

- أعطنى فرصة للتفكير .

- أريد ردك هذه الليلة !

تلقى نظرة سريعة إلى ساعتها وتعلق حقيبتها فى كتفها :

- نكمل كلامنا فى الطريق !

تخرج مسرعة وألحق بها على السلم .

الشارع المؤدى إلى النيل .. زحام .. سيارات تتدفق .. بنايات عملاقة .. واجهات تزدحم باللافتات والأسماء .. أضواء .. لمبات ملونة تضيء وتنطفئ .. كريات مضيئة تتسابق فى محيط دائرة . وهدير تسير صامتة بجوارى .. هدير صانعة المراكب والحلقات . ماذا سيحدث إذا ضاعت منى هذه المرة أيضاً؟ هل ستعاودنى حالة الوجد والصفاء الشجىّ واسترجاع الذكريات ، وأراها بعد أن تباعد بيننا الأيام والمسافات؟ أنا لم أزل أحبها . فماذا يمنع اقتران المركبين لتكوين اللون البرتقالى البهيج وكل شروط التفاعل متوافرة الآن أكثر من أى وقت مضى؟

- هدير .. لمَ لانحيل الحلقتين الورقيتين إلى شيءٍ حقيقى صلب؟ لمَ لا نفعل مثل المركبات حين تقترن وتكون الألوان الجميلة ؟

تتأملنى هدير بدهشة . وأحس بفرحتها المتوجسة :

- هل نستطيع إتمام كل شيءٍ خلال الأيام القليلة الباقية من إجازتى؟ شقتى جاهزة . ولكن لاتنسَ أننا سنكون مشغولين باستخراج تصريح العمل وشهادات الخبرة من أجلك .. وجواز السفر .. هل لديك جواز سفر؟

- لن نحتاجه .. لن نسافر .. سنعيش فى شقتى الصغيرة وستجدين هنا عملاً مناسباً .

- مازالت هناك أشياء كثيرة لم أحققها . لماذا لا نحققها معاً؟

- لماذا تصرين على السفر ؟

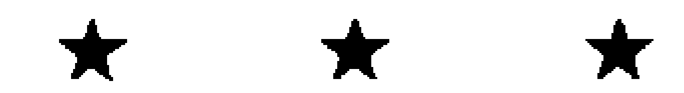
- وأنت لماذا تصر على البقاء ؟

- لماذا تربطين المراكب بالحلقات ؟

تعبر هدير من بين السيارات إلى الجانب الآخر . أسرع إلى إشارة المرور . أنتظر الضوء الأخضر فى لهفة . أعبر من فوق الخطوط البيضاء . أجرى ... لا أجدها ! أحدق فى المياه الداكنة . أتطلع إلى الكوبرى الذى يلوح كشريط متوهج معلق بين الشاطئين ، وإلى اللافتات المضيئة المرحة التى تعلن عن أماكن اللهو والترفيه على الشاطئ الآخر . أرى الصغار وأسمع أصواتهم وهدير بينهم .. السمك الكبير .. الراتب الكبير ..

الأشجار الظليلة .. السكن المكيف .. الأمان .. المرأة الحسناء .. كل الأشياء الجميلة لا توجد إلا على الشاطئ الآخر دائماً . لماذا لا توجد على شاطئي ؟!

أقاوم رغبة حارقة في البكاء . لم تنتظر هدير . أول مرة لا تنتظرني هدير .



الالتصاق

كان يحاول النوم . وكان الجو حاراً ، والذباب يحوم ويطنُّ من حوله ، وضجيج الصبية وصياحهم يخترق الحوائط وزجاج النوافذ والوسائد إلى أذنيه وعقله . هبَّ من فراشه وخلع جلبابه ، وفتح الشباك . أخذ يطوِّح الجلباب فى الهواء ، ويطارد الذباب .

فوجئ بها تقفز من الشباك ، وتحتكُّ به ، وتتخبط بين الأشياء . تابعها بنظراته الحانقة لحظات وهى تتهادى أمامه . وقعت عيناه على السكين اللامع فوق المنضدة . أمسك به وأخذ يطعنها فى قلبها وهو يكز على أسنانه . تركها فتهاوت تنزف ما بداخلها فى أنين متخافت ، وتتقلص وتنتفض على أرضية الحجرة . فقدت شكلها الأول تماماً ، واستحالت كتلة هامدة رطبة لزجة طينية اللون .

اختلط طرق الباب برنين الجرس المتواصل . فتح الباب فوجد أمامه مكعباً من اللحم البشرى . كان نصف الولد العلوى عارياً ، وقميصه يلتف وينعقد حول وسطه . وكان العرق يبلل شعره ووجهه وصدره ، وتلتصق به ذرات دقيقة من التراب .

طلبها منه . أمسكها بأطراف أصابعه وألقاها خارج الشقة ، وقطع نظرات الولد المتوعِّدة بصك الباب فى وجهه .

انهال الطوب فجأة على الشباك من مختلف الزوايا . انحرف متفادياً طوبة ، وأمال رأسه متحاشياً طوبة أخرى . انبطح على الأرض ، وكان يسمع أصوات أشياء زجاجية وخزفية تتهشم فى أثناء زحفه فى اتجاه الشباك . التصق بالحائط الجانبى لاهثاً ، وانبثقت حبيبات العرق اللزج من كل مسامه ، وظل يتحين الفرصة لإغلاق الشباك ، وباءت محاولته بالفشل .

انقطع الطوب بشكل غير متوقع وعلا الضجيج . استطاع أن يستخلص صوت حسونة الحلاَّق من بين الأصوات المشتبكة . عادت ضوضاء الشارع إلى معدلها الطبيعى المعتاد . أطلَّ من الشباك بحذر وزفر بارتياح وأغلق الشباك واطمأن على باب الشقة .

توقف واستدار ناحية الباب وأرهف السمع . كانت الأقدام تقترب وسمع النقر خفيفاً على الباب . أعقبه رنة خاطفة من الجرس :

- أنا حسونة .. افتح يا أستاذ !

دخل حسونة يحمل لوحاً من الزجاج على شكل شبه منحرف ، ووضعه فوق المنضدة الدائرية .

- كانوا يقذفون الطوب بلا وعى فانكسر الزجاج .. لقد شاهدت الكرة الممزَّقة مع الولد حمادة !

حملق إلى وجه حسونة بدهشة :

- كان من الممكن أن تكسره الكرة .. فلماذا لم تمنعهم من اللعب أمام دكانك ؟

دنا منه أكثر تفوح منه رائحة الكولونيا الرخيصة :

- حمادة ابن الصول هريدى كان معهم وهو صاحب الكرة .

وأضاف فى تحسُّر :

- آه لو كان الأسطى عباس هنا ! هو الوحيد الذى كان يمنعهم .

- وأين هو ؟

- سافر منذ شهرين .. عقد عمل بترولى يا أستاذ ! زوجته وأولاده لحقوا به الأسبوع الماضى .

صمت الأسطى حسونة فجأة ، وحدق إليه باستغراب :

- هل أنت حقاً لاتعرف ؟!

تلاقت الدهشة الشديدة فى العيون ، وتحدث حسونة بحزن عن زجاج الواجهة المكسور ، وجودة نوعه ، وتكاليف تركيب زجاج جديد..

- هل تعرف من كسر الزجاج بالتحديد يا أسطى حسونة؟

دنا منه أكثر فأكثر :

- الولد حمادة ولكن الأولاد لا يتكلمون .

- يجب أن يتكفل أبوه بتركيب زجاج جديد .

التصق به :

- الصول هريدى يأتى إلى دكانى كل صباح قبل ذهابه إلى عمله بليمان طرة ، وينحشر فى الكرسى ، أحلق له ذقنه وأسوِّى وألمِّع له شاربه الكبير مجاناً .

انفصل عنه قليلاً وارتفع صوته :

- ولكنه رجل طيب وشهم على العموم .

- أنا على استعداد لتركيب زجاج جديد يا أسطى حسونة .

- سنتكلم فى هذا فيما بعد .

عاود الالتصاق به ، وألصق فمه بأذنه :

- جئت أنصحك .. الصول هريدى هو سيد الحى الآن بلا منازع ، وعلى صلة وثيقة برجال القسم ، وله سند كبير من الأولاد والأقارب والأصدقاء . لقد ذهب الولد بالكرة الممزقة لأبيه . إذا جاءك الصول هريدى كن ليناً معه واستجبْ لكل مطالبه دون مناقشة . واعلم أن بعض الهدايا البسيطة تسعده ، ولكنه يهشم عظام من يغضب عليه !

توقف حسونة فجأة ، وهو فى طريقه إلى الباب :

- لماذا مزَّقت كرة حمادة يا أستاذ ..؟ أستاذ ..؟ إبراهيم ؟

حدق إلى وجه حسونة بحيرة وارتياب ولم يتكلم ، وشيعه حتى باب الشقة .

اصطدمت عيناه بالحيوان المحنَّط ذى الفراء الكثيف والذيل النافش الذى يعلو باب الشقة المقابلة . كان يكشر عن أنيابه ، وشاهد ذبابة

تحط فوق أنفه ، وأخرى تطن داخل فمه . ورأى أمام باب الشقة فضلات جافة ، هى فى الغالب للقطط السمان التى بدأت تغزو المكان بشكل مريب . ألقى نظرة حزينة إلى اللافتة البيضاوية المثبتة بباب الشقة ، تحمل اسم حسونة السبع ، وأغلق باب الشقة بإحكام .

نظر فى توجس إلى جرس الشقة المرسوم عليه طائر ملون فوق غصن ، وفصل الكهرباء ، فتوقفت المروحة الصغيرة العتيقة عن الدوران .

يعدل من وضع المقعد المقعر الظهر ، الذى يحتوى الجالس عليه بذراعيه المكسوين بنسيج وبرى متآكل ، ويغوص فيه . تتشبث نظراته بوجه السيدة التى تبتسم فى وداعة من خلف الزجاج المشروخ للمستطيل المذهب ذى الشريط الأسود .

بدأ الذباب يحوم حوله من جديد ويناوشه من بعيد . لماذا يحدث هذا وقد نفدت كل الأوراق الشحمية اللزجة التى كانت معه ؟!

كانت تلك الأوراق ورقة واحدة فى البداية .. جديدة .. نظيفة .. وعلى الرغم من أنها تبدو مصقولة ، إلا أنه كان يحس لها ملمساً رهيف الخشونة ، يدغدغ أصابعه ، ويبعث فى جسده النشوة .

التصق به المحصل . أعطاه تلك الورقة . كورها ودسها فى جيب سترته ، وناوله التذكرة . كان الالتصاق شديداً ومن كل اتجاه ، وكانت درجة الحرارة ترتفع . انصهر فيهم وانصهروا فيه . وعلى الرغم من حالة الانصهار الكامل ، والذوبان ، والتنفس المشترك ، والنبض المتوحد ، فقد استطاع الاحتفاظ بتفكيره المستقل ، وكان مايزال يذكر اسمه :

إبراهيم عبد الصبور حسنين . وكان سعيداً بذلك . وكان يعرف وجهته وهدفه : المصلحة الحكومية ليتظلم من المبلغ الكبير المطلوب سداده مع الغرامة الباهظة ، ويذكر جيداً أنه سبق له أن سدد جزءاً كبيراً منه .

تذكر باقى العشرين جنيهاً وكان عند الباب الأمامى يتأهب للنزول . ظلت الأوراق تنتقل من يد إلى يد إلى أن وصلت إليه وهو يهبط من الأوتوبيس .

كان فى غاية السعادة والانبهار لعودته إلى حالته الإنسانية الأولى بعد خروجه من الأوتوبيس . تمم على أعضائه ووجدها كاملة . وكان مايزال قابضاً على الأوراق .. كانت الأوراق قديمة ومن فئات مختلفة . أحس وهو يعدُّها بملمسها الشحمى اللزج . حشرها فى جيبه ومشى مشمئزاً .

كان يتنقل بين الحجرات ، وكانت أغلب المكاتب ما تزال خالية . شاهد طفلة تجلس فوق مكتب ، تستحلب قطعة من المصّاصة ، وتعبث أصابعها اللزجة بالملفات .

توالى حضور الموظفين ، وجلس ينتظر الأستاذ عفيفى ، ويمر بنظراته على أرضية الحجرة ، فيحس رطوبة البلاط ولزوجته .

جاء الأستاذ عفيفى يحمل شنطة كالحة حائلة اللون :

- الإيصالات؟

أصابه الوجوم .

- الإيصالات هى الدليل الوحيد على السداد .. إمّا الدفع أو الحجز .

- ألا يمكن مراجعة الدفاتر يا أستاذ عفيفى ؟

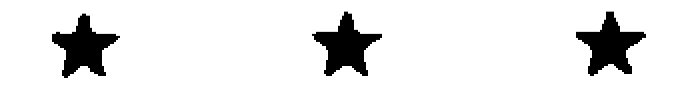
- صعب جداً يا أستاذ !

مال نحوه والتصق به :

- ولكننى فى خدمتك .. قدم شكوى وسأبحثها بنفسى .

فتح درج المكتب وابتسم . ألقمه ورقة شحمية لزجة . ظل الدرج مفتوحاً وفم الأستاذ عفيفى . أتبعها بورقة ثانية وثالثة . انغلق الدرج وانفصل عنه .

غادر المصلحة الحكومية ، وكان ما يزال يذكر اسمه وهو يجلس على المقعد الأمامى الممتاز لسيارة الميكروباص المنتظرة . كان هناك شريط كاسيت ذبابى يطن بالسيارة ، وأخذ الصبى الحافى القدمين المنكوش الشعر يعلّب البشر فى أثناء سيره . كانت السيدة بيضاء وجميلة فى الغالب لكنها بالتأكيد بدينة . التصقت به وتمددت بفعل الحرارة وازداد الالتصاق . تحولّت إلى حالة بين الصلابة والسيولة . وكان يحتويه اللحم المنصهر ، ويحس بالسخونة واللزوجة . ويحاول التماسك والاحتفاظ بحالته الصلبة .. وكان لابد من حدوث التمدد والانصهار والاندماج . ظل طوال الطريق صامتاً مستسلماً للذّة مختلسة ، ومتبادلة بالتأكيد ، ولكنها ممزوجة بوخز الضمير .



يهاجمه الذباب فرادى . تلتصق بقدمه ذبابتان . يحس بارتعاشات الأرجل وذبذبات الأجنحة . يكتشف أن لديه القدرة على تحريك أطرافه ، والرغبة فى المقاومة . يحرك قدميه .. يحركهما بشدة . تطير الذبابتان ولايعرف إن كانت عملية التزاوج قد تمت بنجاح أم لا ؟

هل كان يستطيع أن يمنع الذباب الكثيف الذى يلتص بأكوام القمامة فى الشارع من التزاوج والتكاثر؟ أو الذباب الملتصق بالكلب النافق المنتفخ المتمدد أسفل الكوبرى العلوى؟

صادف مروره تفجُّر باب المدرسة بحشود التلاميذ وكانت الحشود الأخرى تلتصق بالأرصفة والأسوار وحيطان المنازل المجاورة فى انتظار الدخول . شق طريقه بينهم بصعوبة شديدة وأسرع الخطى . وظل الذباب يطارده عبر الشوارع وعلى سلم البيت ، فدخل الشقة وتأكد من إغلاق جميع النوافذ .

ارتدى جلبابه ، وسمع رنات الجرس المتململ ، والنداء باسمه غريباً متآكلاً .

كان محصل الكهرباء . التصق به . أعطاه الأوراق الشحمية اللزجة ، فانفصل عنه بسرعة وناوله الإيصال .

أراد النوم فهاجمه الذباب ، ورآه يلتصق بكل شيء . كان الذباب يتعطر بالمبيد ويطير ويترنح ويسقط على الأرض ويدور حول نفسه ثم ينهض ويعاود الهجوم فى شراسة أكثر . فرغت علبة المبيد ، وارتمى على السرير لاهثاً .

روّعه رنين الجرس الملحّ ، والطرقات المدوية . فتح الباب . وجد أمامه شاباً متأنقاً فى زى أبيض ، تلتصق الطبنجة بجانب بنطلونه ، ويلتصق جهاز الاتصال بيده اليسرى .

- أنت إسماعيل عبد الصبور محمدين ؟

حملق إليه بدهشة :

- أنا إبراهيم عبد الصبور حسنين .

- هلى يسكن معك أحد ؟

- لا ..

- العنوان صحيح .. ولابد أن تكون إسماعيل عبد الصبور محمدين .

- بالتأكيد هناك خطأ ..

نظر فى بطاقة تحقيق الشخصية :

- هناك تشابه غريب بين الاسمين يثير الشك .. اسماعيل .. إبراهيم .. حسنين ومحمدين .. وعبد الصبور هذا !

- من فضلك اشرح لى الموضوع .

- لابد من حضورك إلى القسم .

- أرجوك !

التصق به :

- الموضوع ليس سهلاً كما تتصور !

أعطاه ورقة شحمية لزجة . نظر إليها باستهانة ، فأسرع بإعطائه ورقة أخرى وكانت آخر مالديه .

التصق به أكثر :

- السيدة حررت ضدك محضراً !

- من ؟!

- السيدة التى كانت معك هذا الصباح .

- فى الميكروباص ؟!

- وجاءت معك إلى الشقة .. وطعنتها بالسكين .

- لم يحدث شيءٌ من هذا على الإطلاق .. كل ما حدث ..

قاطعه :

- أستاذ إسماعيل .. سأتصرف بمعرفتى .. ولكن عندما يصل الموضوع للنيابة ...

انفصل عنه وتركه شارداً .

★ ★ ★

كان يتأمل صورته فى البطاقة باستغراب .

ويردد اسمه بارتياب .

وكان مرهقاً .

وكان يحاول النوم ...



يسمع صوت وقع أقدام تصعد السلم .. بطيئة .. ثقيلة .. مفرطحة.. ضاغطة .. يرفرف قلبه وتتلاحق أنفاسه . تصك أذنيه طرقات عنيفة . المكعب البشرى الضخم المكتسى بقماش أبيض يقتحم الشقة . يدفعه ويسقطه على الأرض . يجد نفسه بين ساقيه المنفرجتين . يسمع صوت طقطقة فقرات العنق . وخشخشة الضلوع . يتسرب الهواء من رئتيه ، وتسيل الدماء من قلبه وعروقه حارة لزجة . يلتصق به ذباب برّاق ملوّن كبير الحجم . يدخل من عينيه ويخرج من فتحات أذنيه وأنفه وفمه وبالعكس . يحس بذبذبات الأجنحة وارتعاشات الأرجل . يخترق الطنين عظام جمجمته إلى عقله .

★ ★ ★

تبتعد الأقدام ويسمع وقعها وهى تصعد السلم إلى الطابق الأعلى .

يشعر برغبة مريبة فى الضحك ، فيضحك ، ويضحك ...

★ ★ ★

ليالى ضياع هند

وألقيت بنفسى فى الزحام . .

تهدأ منى الأنفاس وأحسُّ ببعض الراحة لهذه المائدة القصية التى تفتر عندها الأضواء . انقطعت الأصوات الصاخبة التى تشبه موسيقى «الجاز» عند مدخل القاعة . كنت أسمع بوضوح دقات الطبول وآلات النفخ النحاسية وهى تزعق بألحان شعبية . وعبر الممر الطويل ، كنت أرى فى أثناء حركتى الانسيابية مع تيار الأجساد سياجاً من شجيرات مشذَّبة ، أزهارها قاتمة الحمرة ، ربما بنفسجية ، وحواجز مربعة الشكل من الحديد المغطَّى بالأسلاك ، تنتظم وراءها الشجيرات على الجانبين . القاعة بيضاء الجدران رحيبة . السقف واطئ قليلاً ، تتخلل تكوينه الإسفنجى الأبيض فراغات تطلُّ منها لمبات ملونة . وهناك أعمدة ذات مرايا ، ووجوه ملوَّنة بالفرحة والمساحيق . زغاريد وكأسان من الشربات الوردى الصافى على صينية من المعدن تتألق تحت الأضواء . حفل زفاف .. العروسان على كرسيهما العلويين فى جانب المسرح ، وكلاهما يرتشف من كأس الآخر ، ويبتسمان أمام كاميرا الفيديو المرحة . قاعة أفراح بأحد النوادى الفخمة . أتذكر الآن السيارات المزينة بالبالونات والشرائط

الملونة والزهور تصطف أمام المبنى . والكريّات المضيئة الملونة التى تكون دوائر ذات مركز واحد تتسع وتتقافز وتتسابق على الواجهة الخارجية للمبنى .

وكنت أقترب وأنا ألهث ..

لا أراها بين الجالسات فى القاعة . لكننى أحس أننى سألتقيها هذه الليلة . منذ وقفت أمام الكازينو فى الجو المعطر بدخان الشواء وأنا أحس أننى سألتقيها . لم تكن بين روّاد الكازينو الليليين الجالسين فى الساحة الخارجية المرتفعة عن الشارع ، وأمامهم زجاجات خضراء داكنة . كانت كل امرأة تحمل جزءاً منها ، لكننى لم أجدها كاملة . كان الجالسون ينظرون إلىّ بدهشة وازدراء وأنا أحمل الأوراق . ضغط الحذاء الأسود المصقول الشديد البريق ذو القطعة المعدنية ، الموضوع على حافة الحوض الرخامى لشجرة الزينة . ضغط بشدة ، فآلمتنى أصابعى . سقطت الأوراق وتبعثرت أسفل سور الكازينو الحجرى الواطئ . ملت ألملم الأوراق وأستخلصُها من تحت النظرات الثقيلة الضاغطة للعابرين . أيقنت أنه من المحتم علىّ أن أجمع كل الأوراق بسرعة ، ولا أترك ورقة ، عندما لاحت السيارة ذات الكابينة الزرقاء الداكنة والصندوق الخلفى المغطى بقماش ثقيل . خطفت الورقة الأخيرة وانطلقت أجرى وانعطفت فى الشارع الجانبى .

وحين لاح الزحام والأضواء كنت على وشك السقوط ..

- لا لى لى لالى .. لالى .. لالى .. لالى ... !!

هناك رنا إلىّ ، ثم راح يهمس إلى السيدة التى بجواره . ولكن كيف أخرج؟ من المؤكد أن السيارة ذات الصندوق قد تبعتنى ، وربما شاهدونى وأنا أدخل ، ويكمنون الآن لى خارج القاعة ، أو يربضون وراء سياج الشجيرات ، وبجوار كل زهرة فوهة بندقية أو مسدس كاتم للصوت . لا أعتقد أنهم سيضطرون إلى اقتحام الحفل من أجلى ، مع أنهم لايتورعون عن فعل أى شىء . أنا لم أسمع حتى هذه اللحظات وقع سنابك الخيل أو صهيلها ، والبقاء أفضل فى هذا المكان . منذ كنت أمام الكازينو أشم رائحة الشواء ، وأتنفس عبق الأماكن القديمة ، وإحساسى بلقاء هند يزداد . هند ستأتى وسألقاها هنا .

حصان يقتحم القاعة ..

على ظهر الحصان رجل يرتدى عباءة ذات رقعات كثيرة ملونة وعلى رأسه طربوش أحمر قصير مغربى الطراز ، وفى يده مبخرة . يقترب الحصان من خشبة المسرح ، وينزل الدرويش من فوق ظهره ، وينفصل الحصان إلى شخصين . يصعد الدرويش إلى المسرح ، وتتأرجح المبخرة فوق رأسى العروسين ، وتنطلق كلمات الدعاء الموقعة على النغمات ، ويتصاعد الدخان . يطوف الدرويش بين الموائد . يطلق البخور.. يتكاثف الدخان .. الجو ضباب .. رائحة البخور تخامر أخلاط العطور الممتزجة بعرق الأجساد . يطغى إحساسى بقرب لقاء هند . أنا على يقين أنها تسكن فى هذه المنطقة أو قريباً منها ؛ لأننى أشاهدها كل ليلة ، وعندما تضيع منى يساورنى الشك فى أنها كانت هى . غير أنى متأكد أنها كانت هى فى ليلتين من الليالى على الأقل .

من الحاضرين لايعرف بعضهم بعضاً ، وربما يلتقون للمرة الأولى ، ولم تجمعهم سوى بطاقات الدعوة تلك . أنا لا أحمل بطاقتي الشخصية ، ولا أعرف لماذا يحرص الناس على حملها ووضعها في أغلفة خاصة . ماذا تعني كل البطاقات وأوراق إثبات الشخصية التي يحملها الجميع ؟ وعلامَ تدل؟ هل يمكن أن يسألني أحد من أكون؟ أنا شاعر من الزمن القديم ، وجهه بلا ألوان ، وقصائده لا تعجب السلطان . قد يكون منظري ليس على مايرام . قميصي متسخ وبدلتي متغضنة . لم أحلق ذقني منذ أسبوع أو أكثر . كنت أريد حلاقتها لولا أن سمعت نفس الصوت يردِّد : الدار ليست أماناً فلا تبقَ . أسرعت بالخروج دون أن أتمكن من تغيير ملابسي . المهم أنني لا أحمل أقلامًا من أي نوع . ومن الأفضل أن أقول : أنا كاتب يعاني مرضاً اسمه : جنون الخوف من الأقلام .

- يا ناس أنا مت في دباديبه .. !

الفتاة ترفل فوق المسرح وتتحرك في رشاقة ..

- دباديبه ..

تجيبها الأصوات ..

- والقلب مشعلل بلهيبه ..

وأصابعها المشتعلة بالفتنة تتراقص في الهواء .

- بلهيبه ..

يمكنني الانسحاب والتسلل خارج القاعة لأن ذلك الطفل الجالس

هناك رنا إليّ ، ثم راح يهمس إلى السيدة التي بجواره . ولكن كيف أخرج؟ من المؤكد أن السيارة ذات الصندوق قد تبعتني ، وربما شاهدوني وأنا أدخل ، ويكمنون الآن لي خارج القاعة ، أو يربضون وراء سياج الشجيرات ، وبجوار كل زهرة فوهة بندقية أو مسدس كاتم للصوت . لا أعتقد أنهم سيضطرون إلى اقتحام الحفل من أجلي ، مع أنهم لايتورعون عن فعل أي شيء . أنا لم أسمع حتى هذه اللحظات وقع سنابك الخيل أو صهيلها ، والبقاء أفضل في هذا المكان . منذ كنت أمام الكازينو أشم رائحة الشواء ، وأتنفس عبق الأماكن القديمة ، وإحساسي بلقاء هند يزداد . هند ستأتي وسألقاها هنا .

حصان يقتحم القاعة ..

على ظهر الحصان رجل يرتدي عباءة ذات رقعات كثيرة ملونة وعلى رأسه طربوش أحمر قصير مغربي الطراز ، وفي يده مبخرة . يقترب الحصان من خشبة المسرح ، وينزل الدرويش من فوق ظهره ، وينفصل الحصان إلى شخصين . يصعد الدرويش إلى المسرح ، وتتأرجح المبخرة فوق رأسي العروسين ، وتنطلق كلمات الدعاء الموقعة على النغمات ، ويتصاعد الدخان . يطوف الدرويش بين الموائد . يطلق البخور.. يتكاثف الدخان .. الجو ضباب .. رائحة البخور تخامر أخلاط العطور الممتزجة بعرق الأجساد . يطغي إحساسي بقرب لقاء هند . أنا على يقين أنها تسكن في هذه المنطقة أو قريباً منها ؛ لأنني أشاهدها كل ليلة ، وعندما تضيع مني يساورني الشك في أنها كانت هي . غير أني متأكد أنها كانت هي في ليلتين من الليالي على الأقل .

منذ قرابة شهر رأيتها أمام الواجهة الزجاجية المتألقة بالأنوار لذلك المتجر الكبير المشهور الذى يباع فيه كل شىء . كانت تلبس بلوزة حمراء رقيقة وبنطلون جينز ، تعانق لحم صدرها قلادة كبيرة من الذهب . كنت على الجانب البعيد للشارع ذى الاتجاهين . انطلقت نحوها بسرعة . كبحتنى فرملة مفاجئة قوية ، ونزل شاب يرتدى قميصاً ناعماً ملوناً من السيارة الشبح ، يطمئن على مقدمة السيارة . لم أسمع كلماته جيداً فى ضجيج كاسيت السيارة والسمّاعات الخلفية ، لكن كل ملامحه كانت تنطق بالغضب والوعيد . دخلت المتجر مسرعاً . أخذت أطوف بصالاته الواسعة ، وصعدت إلى طوابقه العديدة . كنت حائراً تحاصرنى تليفزيونات كثيرة من كل ناحية ، وفى كل شاشة صور ملونة تختلف عن الأخرى . لم أجد هنداً وسط أجهزة الفيديو والأطباق المقعرة الضخمة ، والثلاجات والغسالات وحجرات النوم الفخمة . لم أجدها وسط الفساتين أو وسط الأحواض الملونة والسيراميك . ولم يكن للمتجر باب آخر !

أمس كانت أمام النافورة ، تجلس وحدها وعلى فخذيها شنطة يدها . الشنطة البيضاء ذات الجلد المتشقق وفوقها كتب الجامعة . كانت تلبس فستانها الأصفر الذى لا تغيره كثيراً . وكنت أسمع صوتاً جميلاً وموسيقى حلوة تهفهف من بعيد . كانت أغنية : ألف ليلة وليلة لأم كلثوم .

« يا حبيبى إيه أجمل من ليل واتنين زيّنا عاشقين؟ »

وقفت بعيداً لأن العربة التى تطل من صندوقها الخلفى بنادق ورشاشات ، ومن حولها عساكر فى ملابس سوداء ، كانت تربض أسفل الشجرة بالقرب من النافورة . طال انتظارى .. رأيت أحدهم يقبل نحوى

فـأسـرعت الخطى ثم انطلقت أعـدو . لم أجـدها مـسـاء اليـوم فى ذات المكان. فـقـط وجدت العـربة والبنادق والعـسـاكـر ذوى الملابس السـودا ء والرشاشات .

تخفت الأضواء ويدور الشاب ذو الجلباب الأبيض الشاخص العينين إلى أعلى حول نفسه بطيئاً فوق المسرح ، على إيقاع الطبول والدفوف وأنغام الناى . تنبسط الدائرة الملونة حول خصره وهو يدور ويدور . تزداد سرعة الإيقاع والدوران .. ينجدل الجسد النحيل وينجدل . يستطيل وتصير التنورة هالة نورانية حول الجسد المجدول المتصاعد وسط الدخان إلى أعلى .

أهيم .. أحلّق ..

هند اكتمال الجمال المحال فى الوجه الواحد والجسد الواحد ..

هند العينان الخالدتان ..

يبلغ الدوران أقصى مداه ..

يتلاشى الجسد ..

هند الروح الجميل ..

هند الحب والحنان والأمان والسكن ..

هند تدنو ..

تنطوى المسافات ويختصر الزمن ..

ليس بيننا سوى لحظات ..

خطوات ..

- هنــد !

- لم تزلْ تذكرنى ؟

- أنت معى ولست معى .. قريبة أنت وبعيدة .. تكونين فى يدى وتضيعين منى !

- أنت الذى ضيَّعتنى وتضيِّعنى من يديك !

- هم الذين أضاعوكِ ويضيعونك منى ..

- عمَّن تتحدث ؟

- السلطان .. وقائد الشرطة والعساكر .

- لقد ذهب السلطان وقائد الشرطة وعساكره .

- كيف يا هند ؟ إننى أراهم فى كل مكان .. أحياناً على الخيول وفى أيديهم الرماح والسيوف .. وأحياناً فى سيارات ومعهم البنادق والقنابل المسيلة للدموع والرشاشات .

- هل تظن أنك بعيد عن قبضتهم إن كانوا يطلبونك حقاً ؟

- إنهم يمارسون معى لعبة الدمار الرهيبة . يتركون لى دائماً ثغرة للنجاة فى اللحظات الأخيرة قبل السقوط والانسحاق ثم يواصلون المطاردة قبل أن أستريح . نفس طريقة قتل العصافير تقريباً بالدق على

الصفائح والعلب الفارغة وإجبارها على الطيران المتواصل حتى اللهاث والسقوط والنفوق .

- تعرف إذن أنها لعبة ..

- لكننى أدمنتها يا هند .. لابدَّ أن أجرى ولا بد أن يطاردونى .. أنا مطارد عبر العصور .. وقد تعبت .. تعبت .

يهدأ الدوران شيئاً فشيئاً ويؤوب راقص التنورة من رحلته العلوية ويعود بشراً سوياً .

يدخل حملة المشاعل ويسير موكب العروسين على نورها إلى التورتة الكبيرة ذات الطوابق ، ويتزاحم المدعوون حول البوفيه . يعودون إلى الموائد بالأطباق وزجاجات الشراب . يعزف الأورج لحناً هادئاً تخامره ثرثرة الحاضرين وأصوات الشوك والسكاكين .

أقوم وأرجع بقطعتى جاتوه فى طبقين . وأتابع هنداً وهى تضع الشوكة فى قطعة الجاتوه برهافة وتأنق .

- العروس جميلة ..

- والعريس أيضاً ..

- سعيدان هما ..

- كان يمكن أن نكون مثلهما منذ زمن طويل لولا سنوات السجن..

- يمكن أن نبدأ من جديد .

- لماذا لا ألقاك يا هند فى الزمن الصحيح ؟!

- كنت تقول لى : نحن بالحب نقاتل ..

- عندما يكفون عن مطاردتى استطيع أن أعيش وأن أحب .

- أقسم لك أن السلطان قد ذهب وانتهى زمن المطاردة .

- ذهب القصر ومازال السلطان موجوداً .. وقائد شرطته .. وعساكره ..

- لماذا إذن تتعب نفسك بالبحث عنى ؟!

كاميرا الفيديو تطوف بالوجوه .. أدير وجهى بسرعة وأخفيه من الضوء المبهر .. المكان شبه مظلم .. أشباح .. أصوات .. كشاف قوى مسلط على وجهى .. كان التحول إلى تكوين آخر غير التكوين البشرى أمنية مستحيلة للنجاة من صعقات الكهرباء وركلات الأحذية . كنت ممدداً على الأرض القذرة ، وأحدهم يعبر عامداً بحذائه فوق يدى اليمنى. كنت فى شبه غيبوبة لكننى شعرت بالألم ورأيت الحذاء الأسود المصقول الشديد البريق ذا القطعة المعدنية .. كان يضغط ويركز الضغط على أصابعى : الوسطى والسبابة والإبهام .. لحظات خاطفة من الانسحاق والألم كأنها دهر طويل .

« لاتمسك أقلاماً بعد ذلك من أى نوع . لا تظن أنك يمكن أن تكون بمأمن منا .. اسمك لدينا .. كل عناوينك .. بصمات أصابعك .. بصمة صوتك .. رائحة عرقك وبولك .. خلايا دمك .. صورة وجهك من مختلف الزوايا وفى أى شكل يمكن أن تتنكر فيه أو تفكر فى التحول إليه .. »

وخرجت أبحث عنك يا هند فى أماكننا القديمة .

تضج القاعة وترتفع الصيحات : ياسمين .. ياسمين .. وأرى الراقصة البيضاء تخطر فوق المسرح فى غلالتها البرتقالية . وجهها تغطيه المساحيق لكنها لاتخفى التجاعيد أسفل عينيها الواسعتين ذواتا الرموش الاصطناعية .. يعلو صوت المطرب الشعبى الذى فى صوته بحة تثير الشجون :

- يا حتة مارون جلاسيه والحشو شكلاته .. !!

وعليه تميل الراقصة :

- شكلاته الناتا كوانّاتا ..

تخرج الأوراق المالية وينهال النقوط على الراقصة والمطرب . يرقص أحدهم على المسرح ويغرس بين نهدى الراقصة ورقة ملفوفة بمائة جنيه ، ويشتعل الرقص والغناء والنقوط .

تعزف الفرقة لحن الزفاف للعروسين ، ويقومان وتتقدمهما الراقصة . يلملم الناس أشيا ءهم وينهضون . أنظر أمامى وحولى فلا أجد هنداً !

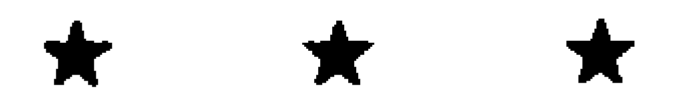
ليس على المائدة سوى أوراقى وطبق به فتات وطبق آخر به قطعة جاتوه كاملة .

أبحث عن هند وسط الزحام ، وأنساب مع تيار الأجساد عبر الممر الطويل وأصل إلى خارج المبنى . أتلفت حولى فلا أراها . يتوزع الزحام على السيارات .. أعدو من سيارة إلى سيارة .. أطل من النوافذ

المفتوحة وأنظر من خلف الزجاج . تنطلق السيارات الصارخة خلف سيارة العروسين .. تخفت الأصوات .. تتلاشى .. تختفى .. وأقف وحيداً . أشاهد هنداً فى ثوب زفاف أبيض من الدانتيلا ، وعلى رأسها تاج مرصّع بالفل والياسمين ، تقبل نحوى من الرصيف الآخر . أهمُّ بملاقاتها فاتحاً ذراعىَّ . يلفح وجهى كشاف السيارة المسرعة نحوى .. أسرع الخطى مبتعداً .. أسمع دقّات الأحذية ذات القطع المعدنية على أسفلت الشارع ، ووقع سنابك الخيول وصهيلها ، والدقات الصاخبة على العلب الفارغة . يتكاثف غبار خانق ، وتنتشر عصافير كأنها أسراب الجراد . أجرى بكل ما أستطيع من قوة . أسمع صرخات العصافير الفزعة وهى تصطدم بوجهى وبواجهات البنايات وأعمدة النور . تتساقط على طول الطريق أمامى وهى تنتفض وترفرف رفرفاتها الأخيرة . أواصل العدو وأنا أقفز وأتفادى سحقها تحت أقدامى ، وأشعر بها وهى تنسحق تحت أقدامهم . أتعب .. أقف لاهثاً مستسلماً .. أحس بهم ورائى :

– ماذا تريدون ؟ ليس معى أقلام والأوراق التى معى كلها بيضاء.. بيضاء .

أسمع ضحكاتهم ثم وقع أحذيتهم فوق الأسفلت وهم يبتعدون .



رمسيس.. تحرير



أستجمع شجاعتى وأشير إلى سيارة التاكسى العابرة . تتوقف ويسألنى السائق عن وجهتى . أتوه فى صخب موسيقى الكاسيت . أسمعه يقول إن له طريقاً آخر غير طريقى . هل استطاع السائق أن يستبين إجابتى من حركة الشفاه وتعابير الوجه أم أننى كنت أتكلم حقاً؟ أحس أن حقيبتى أثقل كثيراً مما يجب وأنا أرجع إلى محطة الأتوبيس . أصبحت المحطة خالية ، ابتلعت السيارات المتعاقبة كل من كانوا واقفين وما زلت أنتظر .

عربة ميكروباص تتوقف . وصوت مبحوح مشروخ يكابد للخروج :

- رمسيس .. تحرير .

العربة خالية من الركاب . أسير نحوها خطوات ثم أتوقف . يتكرر الصوت - ذات الصوت - ويصحبنى حتى باب العربة الأمامى . الباب لايريد أن ينفتح . العيب فى المقبض الخارجى بالتأكيد وليس منى . أرتبك . أحرك المقبض فى عصبية ، وأجذب الباب ناحيتى بعنف . أشعر بالإحباط الشديد . أتراجع ويشدنى الصوت الواهن بقوة . أنظر إلى

السائق صاحب الصوت ، وإلى الباب الذى انفتح . أشعر أنها دعوة خاصة جداً ، وصديقة جداً ، فأركب وأجلس إلى جواره . يبتسم السائق ويعتذر ، فالباب لا ينفتح إلا من الداخل . ويسألنى : آخر الخط ؟ أجيب موافقاً بإيماءة من رأسى وإن أكن غير متأكد : هل سأستمر حتى نهاية المشوار وألقاها أم سأنزل قبل المحطة الأخيرة وأذهب إليهم ؟

اضطراب .. اهتزاز .. ثم تحرك بعد تعثر . عربة قديمة ، منهكة ، أشك فى قدرتها على أن تكمل المشوار للنهاية . يقلقنى هذا الإحساس ويريحنى . بنفس صوته الجذاب المؤثر يتحدث السائق العجوز . كان صوته محتبساً لمرض مفاجئ بالأحبال الصوتية ، وتحسنت الحالة مع العلاج . مازال رفع الصوت يؤلمه ، لكنه يضطر إلى النداء لغياب «الصبى» الذى يعمل معه على العربة . يطلب منى السائق بأدب جم أن أؤدى عمل صبى العربة الغائب . وببساطة شديدة يحدد ما هو مطلوب منى : النداء على الناس عند كل محطة : رمسيس .. تحرير . وجمع الأجرة من الركاب . أفاجأ ولا أقدر إلا على الصمت . أفكر : هل من الممكن أن أنجح فى أداء ذلك العمل الخطير؟ الكلام - مجرد الكلام - أصبح عملية صعبة جداً بالنسبة لى . رفع الصوت يحتاج قدراً هائلاً من الجسارة . حتى إن استطعت الكلام فلا أثق فى قدرتى على التأثير فى الآخرين ، كما أننى لم أتعود مطالبة أحد بدفع نقود . النافذة شبه مغلقة. أفكر فى فتح الزجاج ثم أغير رأيى . تنبش أناملى سطح الحقيبة ذا التضاريس الدقيقة جداً . تتحسس المرتفعات والمنخفضات وأتحرك معها صعوداً وهبوطاً . يهدئ السائق من سرعة العربة وتسرع دقات

قلبى وأنفاسى . لست مستعداً للاختبار الصعب . أخشى من الإخفاق منذ البداية . تتوقف العربة وأجول ببصرى : عربة خشبية مزوقة ، زاعقة الألوان ، تبيع السندوتشات وأشخاص يتجمعون حولها . أقرأ عليها عبارات تبدأ كلها بكلمة الصبر . لم أتكلم ولم يتكلم السائق ولم ينتظر . تنتظم العربة فى السير بعد جهد . أتجنب النظر إلى وجه السائق . أشعر بشىء من تأنيب الضمير . يقول السائق إن تلك المحطة ليست من المحطات المهمة . لاتوجد غير عربة السندوتشات وعمال المصنع القريب وراكب أو اثنين أحياناً . أشعر أنه يخفف عنى . أتابع عربة نصف نقل تحمل أقفاصاً من البلاستيك بداخلها فراخ بيضاء لاهثة وأسمع الصوت المذبوح للسائق يسأل : لماذا لم تنادِ فى المحطة الفائتة ؟ وأسمع أصواتاً أخرى :

* بعض الزملاء المخلصين همساً : لماذا لم تصمت ؟

* صوت زوجتى المتخوف من المستقبل : لماذا تكلمت؟

وقال خافضو رؤوسهم ، المتحلقون دائماً حول رجل الشركة الكبير : هذا من تكلم.

وقال كبيرهم والصحيفة أمامه : اكتب تكذيباً لكلامك هذا بخط يدك ووقع عليه فوراً .

أخرجت الأقلام الفاخرة من جيوب البدل الأنيقة ، ورفعت الغطاءات، وامتدت الأيدى بأكثر من قلم .

القلم فى يدى . الإشارة حمراء . المكتب مكيف ومعطر بنوع ساحر من معطرات الجو . أشتم روائح عفنة . ينبهنى السائق إلى أن المحطة التالية ستجىء بعد اجتياز الإشارة ثم التقاطع . أشعر بالضيق والانضغاط والاختناق . الفصل مكتظ بالتلاميذ . المدرس يسأل : قل رأيك الشخصى بصراحة فى القصيدة . تلميذ مجتهد يجيب : القصيدة مملة ورديئة ولا تعجبنى . يسكته المدرس الذى انصعق : لابد أن تقول إن القصيدة جميلة وممتعة ، ولابد أن تعجبك ؛ لأنها موجودة فى كتاب الوزارة ، ومن اختيار كبار أساتذة الوزارة . وهدد بالرسوب كل تلميذ يقول رأياً يخالف كتاب الوزارة . وترصد للتلميذ المجتهد . كان دائماً يتهمه بالكلام والثرثرة فى أثناء الحصص . جعله يقف ووجهه للحائط يوماً دراسياً كاملاً .. عاماً .. أعواماً طوالاً وهو يقف ووجهه للحائط ، تعلوه صورة فى إطار لاتتغير ، وقطعة ورقية مستطيلة الشكل ذات ألوان ثلاثة ، الأسود منها كان طاغياً ولاينساه ، وكلما تململ أو فكر فى أن يتلفت وراءه يضرب بالعصا .

اجتازت العربة التقاطع على مايبدو والمحطة تقترب . إحساس بالعجز يخنقنى . لماذا عاودتنى حالة الخوف من الكلام؟ كنت قد سئمت من الصمت والكلام الذى يشبه الصمت ، وكان تغير قد حدث فى الصورة . تكلمت دون أن أتخلى عن حذرى القديم .. السحيق .

* ضجيج الآلات وصوت الصحفية الشابة المتألق المتحمس : بصعوبة سمحوا لى بالدخول . يردد الجميع هنا نفس الكلام . عرفت أنها من جريدة معارضة وقلت لها كلاماً مختلفاً . حاولت أن أكون صريحاً .

سألتنى هل لديك أوراق تثبت ماتقول؟ أحسست من صمتى أننى أحوم حول الحقيقة ، وأعطتنى رقم تليفون :

- إذا أردت أن تتكلم أكثر وبصوت أعلى اتصل بى .

- هل هناك فائدة من الكلام ؟

- ثق أن كلامك سوف يغير أشياء كثيرة .

اتصلت بها بعد تردد ..

- احضر ما لديك من مستندات . سأنتظرك فى مقر الجريدة بميدان التحرير .

العربة متوقفة أمام المحطة ولكن لا أمل . تهرول شابة تحمل رضيعاً صوب العربة . الصوت مكسور لهفان : تحرير؟ أومئ برأسى وأركز كل طاقتى الداخلية لتصنع ملامح وجهى كلمة نعم . تفتح الباب الخلفى وتساعد سيدة مسنة ترتدى جلباباً أسود على الصعود . تعاود حاملة الرضيع السؤال : تحرير يا أسطى؟ أرهف السمع ويجيب السائق: تحرير إن شاء الله .

تواصل العربة سيرها اللاهث . تبدأ فى التعثر بعد مسافة قصيرة. تتوقف تماماً . ينزل السائق . يغيب قليلاً . يعود ليدير المفتاح : نشيج متقطع ، ثم سكون . يعاود المحاولة بلا جدوى . يتكئ بذراعيه على عجلة القيادة ويزفر يائساً . أتنفس جو العربة . أختنق بالإحباط . أتابع السيارات العابرة . لا أحد يتوقف ويعرض المساعدة . أنا أيضاً لاأشعر بالرغبة فى عمل أى شىء . هل يمكننى الآن إصلاح عطل بسيارة؟

كنت فى أثناء دراستى أحلم بأن أكون مخترعاً ، وكم من مركبات فضائية أطلقتها من شباك حجرتى إلى الكواكب البعيدة . تخرجت فى كلية الهندسة . ومع مرور الأيام صرت أحلم بأن أكون مجرد إنسان فقط.

صوت حاملة الرضيع الملتاع يسأل عن الساعة . أتذكر موعدى ، ولست على يقين معها أم معهم سيكون . أنظر إلى ساعتى ولا أتكلم . ويجيبها السائق بصوت شبه محتبس دون أن ينظر إلى ساعته . صمت تام ، ثم ذات الصوت الملتاع : ميعاد الزيارة سيفوت والعربة واقفة !

صوت السيدة المسنة : ماشية إن شاء الله . الصبر طيب .

ينفذ صوتها داخلى ويضىء .

- فى آخر زيارة كان حزيناً ولم يكن يريد أن يتكلم .

- إن شاء الله سيتكلم .

ترجو الشابة من السائق أن يفعل شيئاً ويعتذر بصوت مختنق : حاولت ولا فائدة . تصر السيدة ذات الصوت النافذ المضىء على البقاء إصراراً غريباً ، وأفكر جدياً فى الانسحاب ومغادرة العربة الهامدة . لم أفكر ماذا سأفعل بعد ذلك . أنزل .. أسمع أنيناً وبكاءً مكتوماً . أتأمل السيدتين والرضيع الغافى على كتف الشابة الباكية التى هى بالتأكيد أمه . أفكر لحظات . أفتح غطاء العربة بكل إصرار . ينزل السائق ويتابعنى باندهاش وأنا أصلح العربة . أنجح وتدور العربة . أشعر بفرحة حقيقية وهى تعاود السير . تدعو السيدتان لى بالستر

والسعادة ، ويشرق جو العربة بالأمل . تقترب العربة من المحطة التالية . أحاول فتح الزجاج . يتحرك مسافة ضئيلة . يقاومنى فأتركه . تتوقف العربة :

- رمسيس .. تحرير .

بصعوبة أتكلم . يرتفع صوتى شيئاً فشيئاً ويصل إلى الحد الأدنى ليكون مسموعاً : رمسيس .. تحرير . وأفرح لأننى استطعت الكلام .

ركب شابان يحملان كتباً وأوراقاً . يتحدثان فى الكيمياء . طالبان فى المرحلة الثانوية غالباً ذاهبان إلى الامتحان .

- يندمج المركبان بفعل الضغط والحرارة وينتج مركب جديد مختلف تماماً.

- الغاز المتصاعد عديم اللون والرائحة يشتعل بفرقعة شديدة .

* طالب سابق يتذكر معلومات قديمة : يتحرر الإلكترون وينفلت عن مداره حول النواة إذا اكتسب قدراً من الطاقة .

- أسئلة أمس طويلة . صعبة . الوقت غير كافٍ . اللجنة كانت خانقة . والمراقب الطويل الأصلع ذو الوجه الأحمر والشارب ..

وجدته أمامى عندما فتحت الباب بعد منتصف الليل . دخل يتبعه ثلاثة رجال ضخام . نظر إلى أثاث الشقة فى تقزز . لمحت زوجتى تنظر متوجسة من وراء باب حجرة النوم الموارب . قال إنه رجل مهم جداً ، وصديق لرجل الشركة الكبير . كانت نظراتى تتعلق بالميدالية : السلسلة الرفيعة التى تنتهى بقيد حديدى صغير . وعندما جازفت بالتحديق فى وجهه تذكرته ، ولكنه لم يكن بالبدلة الرسمية .

- لماذا رفضت كتابة التكذيب؟

وضع رزمة الأوراق المالية على مكتبي ، وبجوارها القيد الحديدي الميدالية .

- الأوراق .

- ليست هنا .

لوى أحد الرجال الثلاثة الصامتين ذراعي إلى الخلف ، وفتش الآخران أدراج المكتب . خرجا وانقطعت فجأة صرخة زوجتي المرتاعة .

أمسك بالنقود لحظات قبل أن يعيدها إلى جيبه ، والتقط الميدالية، وظلت تتأرجح أمامي في الهواء :

- فكر بهدوء ثم اختر . نحن في انتظارك .

غادروا الشقة ، ووجدت زوجتي تنتفض وتنتحب ، وكان الدولاب مفتوحاً ، والملابس تتناثر على أرضية الحجرة .

- الأجرة من فضلكم .

أجمع النقود وأتركها أمام السائق على التابلوه . أنظر في ساعتي . أسمع صوت حاملة الرضيع : قال لي عايز أشوف ابني .

وصوت زوجتي المتهدج : ألم تفكر في ابنك؟

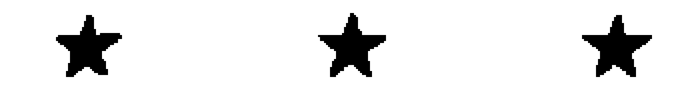
والصوت المضيء : هاتي عيالك وعيشوا معانا ورزقنا ورزقكم على الله .

وصوت الصحفية عبر التليفون : هل تأكدت الآن أنهم خائفون وأننا أقوى منهم؟

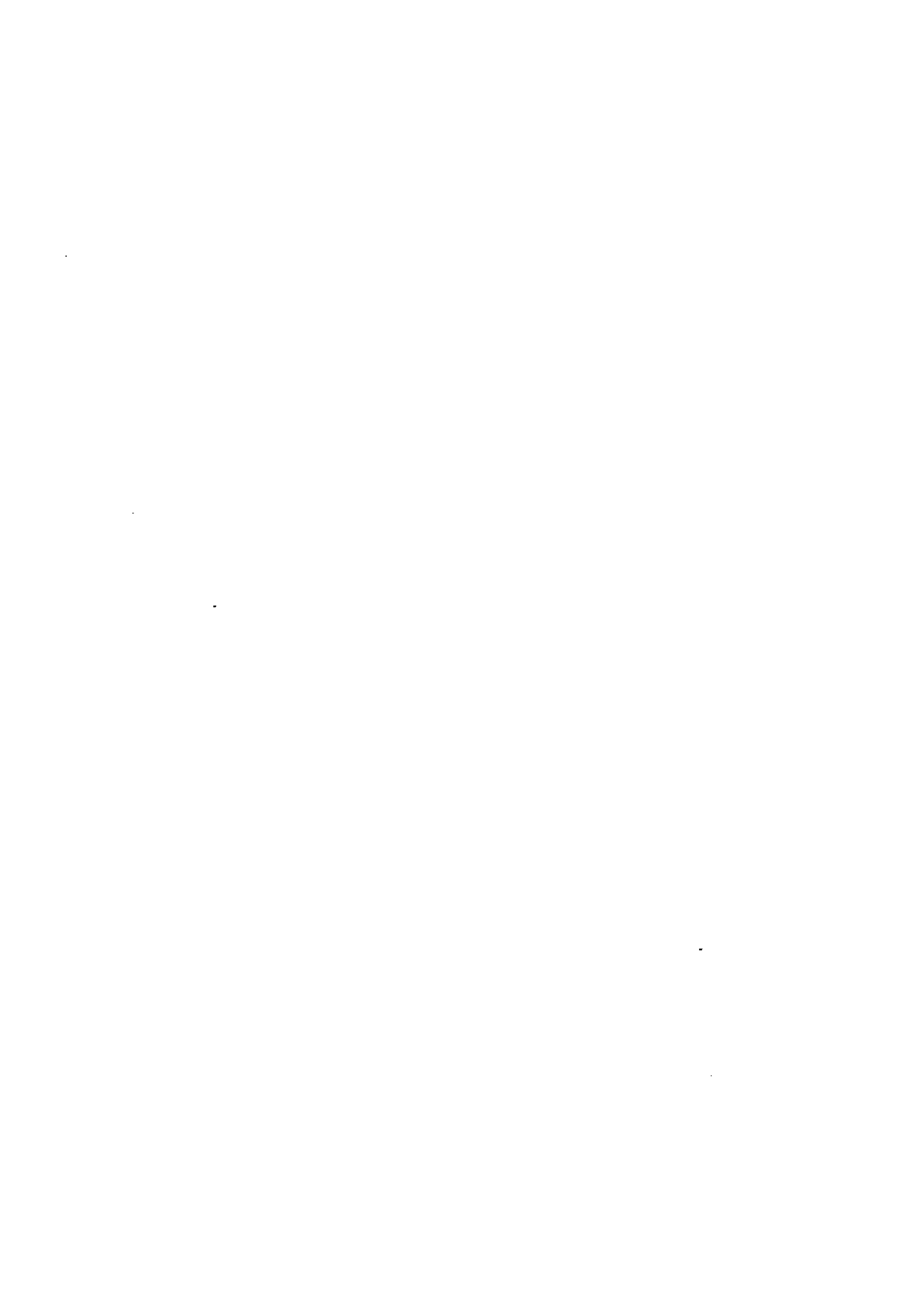
تصل العربة إلى شارع مزدحم وتسير ببطء . المحطة الآتية ستكون أهم من المحطات السابقة بالتأكيد . ناس .. باعة .. مبنى كبير .. عساكر . سيارة عبارة عن صندوق حديدى كبير له فتحات علوية صغيرة مربعة الشكل مغطاة بالسلك . أشخاص يتجمعون عند بابها الخلفى وفى أيديهم قيود حديدية لامعة . كل اثنين مقيدان معاً بقيد واحد . سيدة ذات جلباب أسود تندفع نحو أحدهم وفى يدها طعام فيتصدى لها الحراس . يخبرنا السائق أنها سيارة الترحيلات ، ويؤكد أحد الطالبين أنه شاهد بين الواقفين متهماً كان يشغل منصباً كبيراً ، نشرت الصحف صورته ، وينفى زميله ذلك تماماً ، ويقول السائق : إن كبار اللصوص والمجرمين لا يركبون مثل هذه السيارات ، وتقول السيدة المسنة : ربنا يفك سجنك يا ابنى وسجن كل مظلوم !

يشع صوتها داخلى نوراً ونحن نقترب من سيارة الترحيلات . يحيط الحراس بالمقيدين . ويحيط بى رجل الشركة الكبير وتابعوه . الرجل المهم يلوِّح بالقيد الحديدى الميدالية . يدفع الحراس المقيدين إلى داخل الصندوق ، ويوصدون عليهم الباب الحديدى ، وتنتصب أمامه بندقيتان . فتاة دامعة العينين تلوح بيدها إلى شاب ينظر من وراء السلك ، وامرأة لهفى تحدث رجلاً ينظر من خلف سلك مربع آخر . أفتح الزجاج بكل قوتى فينفتح للنهاية . أطل برأسى . أصيح : رمسيس .. تحرير . أتشبث بحقيبة الأوراق : رمسيس .. تحرير .. تحرير . تلمع

العيون من وراء سلك الفتحات العلوية الضيقة ، وتتحرك الشفاه . تعلو الصيحات : رمسيس .. تحرير .. تردد السيدتان النداء والشابان وأسمع صوت السائق العجوز ويصرخ الرضيع . تخرج الأيدى وتدق على صاج الميكروباص من الخارج ، وأسمع ركلات الأقدام تضرب الصندوق الحديدى من الداخل . ينتظم الهتاف مع الدقات : رمسيس .. تحرير .. تحرير . ويردده العابرون . يتحرك الصندوق الصارخ . تتوقف عربة الميكروباص ويندفع نحوها الخلق كالطوفان .



انهيار



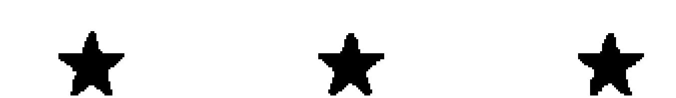
نجحت فى اقتناصه بعد أن قطعت عليه الطريق إلى البوابة . جسده البرى النحيل يتأبى .. يقشعر .. يتشنج .. يتقوس .. قدماه تتشبثان بالأرض .. عيناه القطيتان تتوهجان احتجاجاً ومخالبه الصوتية تضرب فى شراسة :

- اتركنى .. لا تمسكنى هكذا .. لماذا تفتشنى ؟!

لم أجد فى ملابسه القذرة المشبعة بالشحم والأوساخ ماكنت أتوقع وجوده وأخشاه وكنت أعتقد أن المفاجأة وسرعة المطاردة لم تتح له الفرصة لاستخدامه : مطواة قرن غزال أو «موس» حلاقة . وجدت شريطا من أقراص مهدئة أعرف نوعها جيداً . تفتر مقاومته ويلين جسده شيئًا فشيئًا ويستكين . مخالبه الصوتية الواهنة تتعلق بى :

- أنا الزبال .. والنعمة .. ورحمة « أبويا » !

اقتاده أمامى .. آمره بحمل جواله الذى وضعه على الأرض عندما فوجئ بدخولى من البوابة وحاول الفرار . ينحنى ويحمل الجوال ويسير مستسلماً .



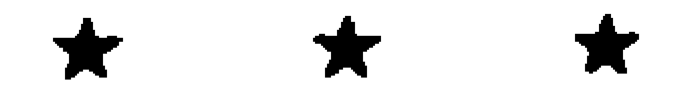
أنا وهو والسكون والترقب في حجرة مكتبي . يغمره الضوء فتضيق عيناه وتجفلان . تبدو ملامحه أكثر وضوحاً على الرغم من قناع الشحم والأوساخ الذي يغطي وجهه . أسأله عما في الجوال . يصمت وينظر في شرود . أدس يدي داخل الجوال وأنا أتمنى العثور على دليل يدين هذا الصبي . أجد جهاز فيديو ملفوفاً في جلباب قذر سرعان ما تعرفته : واحد من عدة أجهزة أقتنيها ولا أجد فراغ الوقت والبال لمشاهدتها في الفترة الأخيرة . أنظر إلى الصبي وأرى على ملامحه الانكسار .. أحس بسعادة غريبة .. ألأنني نجحت في استعادة شيء مسروق قبل أن يتخطى به السارق حدود مسكني؟ لا أعتقد .. أنا سعيد لأنني الآن أمام لص . أسأله عن الفيديو فينكر أنه يعرف عنه شيئًا ويقسم أنه الزبال ! أجلس إلى مكتبي .. أرفع سماعة التليفون ..

- سأبلغ البوليس ..

أدير القرص ببطء .. أختلس إليه النظرات .. عيناه تتسعان فزعًا .. يسرع نحوي ويمسك يدي ويتوسل إليّ .. يبكي ..

- هل ستقول الحقيقة ؟

يهز رأسه موافقا وأضع السماعة وأتركه يتكلم ..



أنا الزبال .. أحضر إلى الفيلا كل يومين أو ثلاثة .. ليس لي ميعاد ثابت .. أحيانا أحضر في المساء ! هل تذكر يا بيه عندما كنت جالسًا في العربة الحمراء والست بجانبك ؟ الشتاء الماضي ، وكنت تلبس

الكرافتة الحمراء .. طلبت منى تنظيف الجنينة .. أعطيتنى جنيهًا وقلت للست تعطينى بعض الهدوم القديمة .. البواب كان واقفاً .. ابتسمت وسألتنى عن اسمى وقلت لك إن اسمى صلاح .. والنعمة .. ورحمة أبويا ..

من المؤكد أن شيئا كهذا قد حدث . يبدو أن هذا الصبى يتابعنى باهتمام شديد . اهتمام يصل إلى حد الإعجاب . الغريب أن اسمه صلاح !

يحك الصبى طبقة الشحم بطريقة لا شعورية ويحملق فى وجهى بأمل :

- هل تذكرت؟ أنا صلاح يابيه ..

أفلت عينىّ من مجال جاذبية عينيه ..

- لا أذكر .. لا أذكر ..

★ ★ ★

أذكر تماما هذا الجهاز الموضوع أمامى فوق مفرش المكتب الروز . أتراه مازال صالحاً للاستخدام بعد مرور أكثر من عشر سنوات ؟ ثانى هدية أتلقاها من كامل الهلالى رجل الأعمال المعروف الآن وعضو مجلس الشعب وشريكى . أول هدية كانت تليفزيونا ملوناً .

مبارة كرة القدم فى نهائى كأس مصر .. فريقى متقدم بهدف مبكر.. أتابع المبارة فى سعادة .. أفاجأ بحضور زميلى المهندس مجدى والمعلم كامل الهلالى المقاول الذى تنفذ شركته مشروع الإسكان وسائقه..

- الفريق الفائز يدافع بكل لاعبيه .. غلطة تقع فيها الفرق دائما..

صوت المعلق يرتفع مع هجمة مضادة ضائعة ويؤيد رأى مجدى . الصوت مشوش . الصورة متذبذبة . يبدى المعلم كامل استياءه ..

- الكورة فى الملون متعة ياباشمهندس صلاح .. أليس عندك تليفزيون ملون؟!

يستأذن ويخرج مع السائق فى مشوار قصير ..

- لماذا لم توقع مع أعضاء اللجنة ياصلاح ؟!

- كل مبانى المشروع غير مطابقة للمواصفات ..

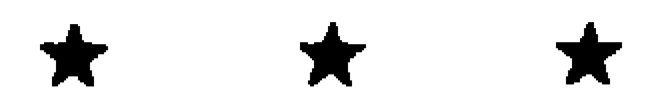
يضحك مجدى ..

- أية مواصفات ؟!

يعود المعلم كامل . السائق يحمل كرتونة كبيرة . تليفزيون ملون جديد أحدث طراز . أرفض فى البداية . أرى الصور الملونة . أفكر .. نتابع الدقائق الأخيرة من المبارة بالألوان .. ينظر المعلم كامل إلى أثاث شقتى المتواضع بإشفاق ..

- تعيش بمفردك يا باشمهندس؟ طبعا تريد الزواج .. هذه الشقة لاتليق بك !

تهتز شباك مرمى فريقى بشدة مرتين متتاليتين فى الدقيقة الأخيرة.. ينهزم فريقى .. يبتسم مجدى وأنا أفتح باب الشقة .



أسمع صرير الباب .. أخرج مسدسى من الدرج بسرعة .. أصوبه نحو رأسه :

- قف لا تحاول الهروب ..

يتجمد الصبى مكانه وينظر إلىّ فى ذعر ودهشة .. أقوم مسرعًا وأغلق باب الحجرة بالمفتاح .. أجذب الستائر فوق الشبابيك المغلقة إمعاناً فى الحذر .

القيود الحديدية .. حبل أو سلك يمكن أن يقوم بنفس العمل .. أذكر أن هناك لفافة من سلك كهربائى فى أدراج مكتبى .. يستسلم الصبى وأنا أوثق يديه .. سيبدأ التحقيق الآن .. لا داعى للأسئلة المباشرة التى تحمل اتهاماً مسبقاً :

- اسمك ؟ قلت لى صلاح .. أين تعمل ؟

- عند المعلم جيوشى ..

- هل تشاهد الفيديو يا صلاح؟

- كل ليلة بعد انتهاء الشغل .. فى القهوة .. بجنيه .. أشوف أفلام عربية وهندية وكاراتيه .. وستات ...

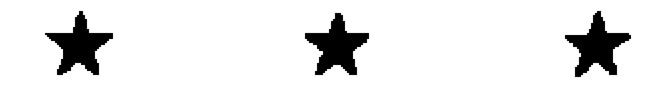
اندفعت منه الكلمات فتوقف وأطرق ..

- أخذت الفيديو لتشاهد الأفلام ؟

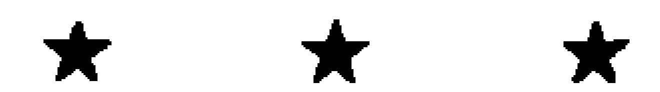
- أنا لم آخذ شيئاً ..

- المعلم إذن هو الذى يدفعك لذلك ؟

- المعلم جيوشى رجل محترم .. عنده فلوس كثيرة .. عمارات .. عربة آخر موديل .. فيديو ..



المعلم كامل لم يكن وحده فى الزيارة الثانية . كانت معه زيزى . فتاة ذات شعر أشقر مصبوغ ، وكان معه جهاز الفيديو هذا . وضع شريطا بداخله .. ظهرت سيدة شقراء تخلع ملابسها قطعة قطعة .. تصبح عارية تماما .. و ... أكملنا السهرة فى ملهى ليلى ورجعت مع زيزى وحدنا إلى الشقة .. ووقعت مع أعضاء اللجنة . تتوالى الهدايا والمشروعات والتوقيعات والعمولات .. سيارة .. شقة .. شاليه .. استقلت من عملى الحكومى وصرت شريكاً لرجل الأعمال كامل الهلالى.. وكانت العملية الكبرى : مشروع بناء المدارس .



أنظر إلى الصبى المنكمش فوق الموكيت الأحمر . يبدو متململاً .. يجول بنظراته الحائرة بين الستائر الحمراء القانية ومقاعد المكتب الجلدية الطوبية اللون ثم يتطلع إلى قطع الكريستال المتألقة . أعتقد أنه يسرق للمرة الأولى فى حياته أو على الأقل يسرق شيئاً ثميناً .. الإنسان يمر بلحظات ضعف كثيرة ويستسلم أحياناً أمام الإغراء ويتنازل . أشعر نحو الصبى بشىءٍ من الإشفاق ! أفك السلك من حول معصمه وهو ينظر إلىّ باندهاش .. أدعوه إلى الجلوس .. يتردد ثم يجلس أمامى متوجساً..

- صلاح .. إذا قلت الحقيقة سأتركك فوراً .. سأعطيك الفيديو وفلوساً وملابس .. قل إنك سرقت الفيديو .. لا تخف ..

- أنا لم أسرق شيئاً !

مازال مصراً على الإنكار ومازلت مصراً على انتزاع اعترافه .. لو قال إنه لص سأتركه فورا .. ليته يقول ويريحنى .

أشعر بالتعب والصداع .. أتعبنى هذا القط المراوغ .. تقول زوجتى إننى لم أعد محتملاً فى الفترة الأخيرة .. دائماً أثور لأسباب تافهة .. تركتْ الفيلا وسافرت إلى الإسكندرية .. البواب أيضًا ترك العمل منذ أيام . نصحنى الطبيب بتجنب التوتر والانفعال . نصحنى أيضاً بالإقلال من الاعتماد على الأقراص المهدئة .. معادلة صعبة .. مستحيلة .. أحتاج الآن بشدة إلى قرص .. تمتلئ أدراج مكتبى بالأقراص .. لايجب أن يلاحظ هذا الصبى شيئاً .. أنجح فى ابتلاع قرص خلسة ..

★ ★ ★

أنت متهم بسرقة الفيديو .. لا .. لا .. أنت متهم بالاشتراك مع كامل الهلالى وآخرين بالغش فى الأسمنت وحديد التسليح وبناء مدارس غير مطابقة للمواصفات مما أدى إلى تصدع جميع المدارس وانهيار مدرسة ومصرع وإصابة عشرات التلاميذ .

اهتزت الأرض ورفعوا الحصانة عن كامل الهلالى وفكرت فى التخلص من حياتى .. لماذا لم أعترف ؟ لماذا أنكرت ؟!

أنظر إلى التليفون .. أفكر .. أتردد .. أرفع السماعة .. أدير القرص ..

- سأبلغ البوليس بكل شيء .. سأقول إنك لص .. مدمن .. تتعاطى الأقراص .. منحرف .. تشاهد الأفلام الممنوعة ..

يبتسم الصبى فى برود :

- أنت أيضاً تأخذ من نفس الأقراص .. أرى الشرائط الفارغة فى الزبالة وتحت شباك مكتبك .

أحس أننى على وشك الانهيار . أحاول التماسك . أترك السماعة . هل سينتصر ذلك الصبى؟ هل سينتهى الموضوع إلى لا شيء وتغلق الملفات ؟ هل ستخرج جرائد الصباح تحمل التهانى ببراءة كامل الهلالى وشريكه المهندس صلاح ؟ هل نحن أبرياء؟ هل أنا برىء.. هل هو برىء؟

أخرج مسدسى . أصوبه نحو رأس الصبى :

- إذا لم تعترف الآن وتقول إنك لص سأطلق عليك الرصاص .

يحدق الصبى فى المسدس بهدوء واستسلام . تمر اللحظات بطيئة.. قاسية .. تتراخى أصابعى .. أعيد المسدس إلى الدرج وأنظر إلى الصبى فى ضيق شديد .. أنهض .. أمسك بملابسه .. أجذبه بكل قوتى .. أهزه بعنف :

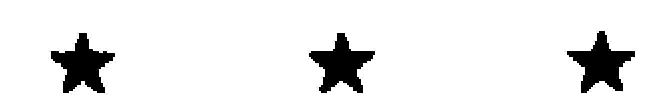
- قل إنك لص .. مخادع .. غشاش .. مدمن .. منحرف .. جشع.. قاتل .. قل .. قل ..

أصفعه ، أركله ، أوجه إلى وجهه اللكمات .. يقف والدماء تسيل من أنفه وفمه ، وعيناه القطيتان تتوهجان تحدياً وثورة :

- نعم .. أنا حرامى .. سرقت الفيديو .. كنت أعلم أن الفيلا خالية .. دخلت من شباك المطبخ .. لم أكن أريد غير هذا الفيديو الذى رأيته عندما طلبت منى الست تنظيف حجرة الأشياء القديمة منذ مدة .. أبلغ البوليس الآن .. اقتلنى ..

أحس أننى أمام وحش ضخم جريح يوشك على افتراسى .. أتراجع نحو الباب .. أفتحه .. يلتقط الصبى جواله وشريط أقراصه من فوق المكتب .. ينظر إلىّ بازدراء ويخرج .

أشعر بالإرهاق الشديد . أكتشف أن يدىّ ملوثتان بالدماء . ينتابنى الفزع . جهاز الفيديو يسبح فى الدماء .. الستائر خيوط دموية تتماوج .. أحسن بالدوار .. النجفة تتأرجح .. تقطر قطع الكريستال بالدماء .. الموكيت دماء والمقاعد .. الأرض تهتز من تحتى .. أتشقق من داخلى .. أتصدع .. أتساقط جزءاً .. جزءا ..



أناشيد الخلاص

أصل إلى الشارع الطويل الضيق الصامت دائماً . أسير بين السور الخلفى العالى للدير ، والأسوار المتهدمة ذات النهايات المتعرجة ومن ورائها البيوت القديمة التى كان يسكن أكثرها «الخواجات» . البوابات حديدية صداة متيبسة المفاصل ، مشلولة ، معظمها موصد بسلاسل غليظة ، عليها أقفال كبيرة ، مفاتحها غائبة مع أصحابها الغائبين فى أماكن مجهولة . البلكونات أقفاص حديدية معلقة . حلية بارزة لوجه امرأة أسطورية ذات جدائل ثعبانية . نباتات الصبار على جوانب الأبواب الداخلية . قطة صغيرة محشورة رأسها فى علبة فارغة للأغذية المحفوظة تتلوى وتتراجع مذعورة . أغصان الكافور تنسدل من خلف الدير . أنحنى قليلا لأتفادى الشجرة المتكئة على السور المقابل الملقية بنفسها إلى الخارج . السكون والضيق يزيدان من إحساسى بالعتمة . صرير باب.. إضاءة مباغتة لمصباح يتدلى من سقف حجرة علوية .. رائحة سمك يقلى .. أغنية لابد صادرة من فونوغراف عتيق .. أدلة على وجود أحياء فى هذا الشارع الغريب . أتجاوز شارع مدرسة الصم والبكم ، وأواصل طريقى إلى حمدى الرشيدى . أتراه مازال مصراً على حضور

حفل الزفاف ؟ منذ أيام دعاه إبراهيم . تكتم نبأ استشهاد شقيقه «على» ولبى الدعوة . لم يخف النبأ عن إبراهيم فرجع باكياً وأخبر حمدى أنه اتفق مع عروسه نادية على تأجيل «الفرح» . رفض حمدى ، ورجا إبراهيم أن يقيم «الفرح» فى موعده ، وقال إنه سيحضر ويشهد على عقد الزواج .

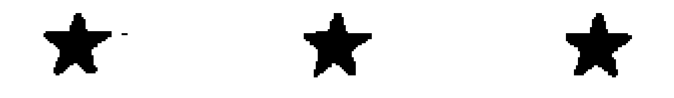
★ ★ ★

نهاية سور الدير : انتصاف الشارع والانكسار المفاجئ فى مساره. يتوقف على .. أطلب منه أن يكمل معى الطريق وأنا على يقين من جوابه :

- المرة القادمة !

أشكره على مرافقتى ونفترق .. أخبر حمدى .. يقول : لا أظنه سيأتى .. يقول إبراهيم : أخوك قلبه أبيض لكن نفسه عزيزة .. اذهب إليه ياحمدى .. يهمس حمدى فى انكسار : دع لقاءنا للظروف ! أسأل نفسى : لماذا لاينسى الشقيقان ماكان؟ لماذا لايبادر أحدهما بكسر الحاجز الذى وضعه بينهما عبد المجيد رضوان؟ وإلامَ حيادى المريب هذا تجاه خلاف الشقيقين؟

تمر الأيام ولا يأتى على ولا يذهب إليه حمدى .



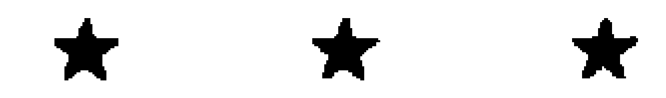
الله أكبر .. الله أكبر

آذان المغرب يأتى من المسجد الواقع أمام المحطة النهائية لسيارات النقل العام عند الميدان الأثرى . صوت المؤذن والكلمات إيناس وخشوع .

عندما نزلت من القطار تلاشى إحساس بالقلق والضياع كان يلازمنى منذ خروجى من «السراية» وأثناء سيرى فى شوارع الحى الراقى ووجودى فى زحام القطار .

لعلى الرشيدى حلول قوى على الأماكن والأشياء . صار لها وجوه وملامح وأنفاس وأحاديث ومشاعر . صار لها جلال وقدسية وخلود . محطة قطار الحى الشعبى العريق .. الكوبرى العجوز .. مظلات المحطة الخشبية وأرائكها الطويلة الخضراء .. الشارع الكبير المواجه لمبنى المحطة .. على يجلس مع أصدقائه على المقهى الملاصق لمبنى «البوستة» .. المخبز الأفرنجى .. على يتطوع بمساعدة الخواجة «نقولا» صاحب المخبز اليونانى ذى الملامح المصرية : توزع يداه الخبز ووجهه الابتسامات على المتزاحمين . على يجلس أمام درج النقود يحاسب الزبائن فى دكان بقالة سعيد الشامى السورى الأصل المواجه للمخبز .. البرتقال فوق عربة عم محمود البائع العجوز .. يشد عم محمود على يدى ..

- الشهيد على حى عند ربه .. عايش بيننا وفى قلوبنا كلنا .



- صباح الفل ..

اليد تحط على كتفى والوجه يغرد . القامة شامخة والجسم ملء «الهدوم» . علاقة عشق وإجلال بينك ياعلى وبين كل ما هو عسكرى . البدلة نظيفة ، مكوية بعناية شديدة ، والحذاء «الميرى» يتألق لمعاناً .

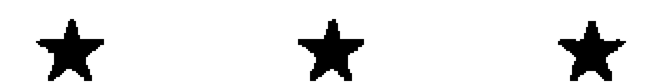
- إلى أين؟

- المحطة ..

- طريقنا واحد ..

هل كان طريقنا واحداً حقاً ياعلى؟!

ومشينا ..



الكون فى خشوع يترقب ميلاد صبح جديد .. الشارع غاف خالٍ إلا من وشوشات اللمبات الصغيرة الساهرة فوق واجهات الدكاكين المغلقة . أخبرتك أنى عائد بعد قضاء الليل مع حمدى وإبراهيم فى بيت شارع الدير . سألتنى عن أحوال أخيك وفتحت لى قلبك فوجدته رحيباً .. رحيباً . عن أرض الرشيدى بدفء الحنين حدثتنى ، وعن عبد المجيد رضوان ، الغريب الذى هبط على الحى مع أعوانه ليشترى البيوت القديمة ويضع يده على الأراضى الفضاء بالقوة أو التزوير ، وكيف سيطر على الحى العريق بنفوذه ورجاله وثروته الضخمة التى تثور الأقاويل حول مصادرها . وثب عبد المجيد رضوان على أرض الرشيدى الواسعة .

استغل حاجة حمدى إلى المال بعد خروجه من السجن الحربى وأغراه بالبيع واشترى نصيبه «برخص التراب» وانقض على نصيب الأم والشقيقة .

– أنا لم أبع لعبد المجيد رضوان ولن أبيع .. وسيأتى يوم أجبره فيه على ترك الأرض التى أخذها بالغش والخداع .

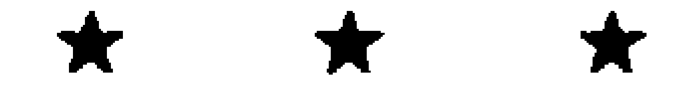
لم أقل لك ساعتها إنه حلم مستحيل مثل أحلامنا الكثيرة المستحيلة . رأيت وجهك يزداد صفاءً ونحن نقف متكئين على السور الحديدى لكوبرى المحطة ، وفاجأتنى كلماتك . طلبت منى إقناع حمدى بالعودة إلى بيت الرشيدى الكبير ، وقلت لى إن زوجته وأولاده وشقيقته الأرملة وأولادها يشتاقون عودته ويحتاجون وجوده إلى جوارهم ، وسمعت قلبك يتكلم :

– ماذا أفدنا من الخصام والخلاف؟ أرض الرشيدى لن تعود إلا إذا وضعت يدى فى يد أخى .. حمدى أخونا الكبير ، ولم يحمل له قلبى إلا المودة ، وأتمنى أن أرجع فى الإجازة القادمة وألقاه فى البيت الكبير .

انتبهنا على صفير قطار السويس الحربى العابر المزلقان وصحت ياعلى بفرحة طفل :

– القطار !

التقيت بحمدى ولم أخبره بكل شىء .. تحول حيادى المريب إلى رغبة شريرة فى بقاء حمدى بعيداً عن بيت العائلة ! مر أسبوعان على لقائنا وفاجأتنا ياعلى مع زملائك بالعبور . كم أحتقر نفسى الآن ! ياترى ماذا تقول عنى ؟



آه ياعلى .. هل كنت حقا ذلك الصبى الهادئ الصموت الذى عرفته أيام كنت طالباً بالجامعة أسكن حجرة مشتركة بجوار بيتكم الكبير؟ لماذا لم تكن تلهو وتزهو على أقرانك أو حتى تعربد وأنت ابن الأسطى الرشيدى صاحب المسبك والاسم العريق فى الحى؟! أى هم كنت تواريه فى صمتك وابتسامات عينيك؟ لأى شىء تعد نفسك؟ هل أخذت الحياة العسكرية طريقاً بعد ٦٧ لتمحو العار عن اسم الرشيدى؟ هل تطوعت فى الجيش لترد الهيبة والكرامة لعائلة الرشيدى بين أهل الحى؟

ماذا فعلت بى يا ابن الرشيدى لأشعل النار فى زورقى فى لحظة صدق أو جنون وأقف على الشاطئ المجهول حائراً . من أين جاءتنى شجاعة المواجهة والصرخة :

- تريد أن تتاجر بدم الشهيد على وزملائه .. تريد أن تتسلل لتبحث عن الغنائم وسط الأطراف المبتورة وأنات الجرحى .. أنت أحقر من لصوص أكفان الموتى ياعزيز .

يتحدث عزيز الآن عن انتصار «المصريين» بعد أن أيقن من فشل جسر الإنقاذ الجوى الأمريكى والثغرة الهشة وهزيمة إسرائيل . يتطلع فى دهاء إلى مابعد الحرب ووقف إطلاق النار ومباحثات الفصل بين القوات والسلام الذى سوق يأتى :

- ليس أمام إسرائيل إلا التسليم «بحقوقكم» والانسحاب من «أرضكم» .. أنا رجل المرحلة القادمة .. مرحلة البناء والتعمير والمشروعات والمقاولات .

عندما صعقت عزيز صرختي احتمى بابتسامة مذعورة ، وأخذ في الارتداد والتحول إلى كائنات غريبة ثم استقر أمامى على هيئة مخلوق كهفى شائه دميم .

★ ★ ★

وصافيناز .. الدمية الوحشية الجميلة الملونة .. منذ قيام الحرب وهى ترابض فى السراية .. لم تعد تذهب للنادى أو تهتم بأشجار الزينة ونباتات الظل .. تراقبنى وترصد خطواتى .. تنظر إلى فى توجس .. أتابع مشاهد المعارك على شاشة التليفزيون وأراقب فرشاة طلاء أظافرها المرتعشة بين أصابعها .. تدوى البيانات العسكرية .. صفحات جرائدنا تتعطر برائحة دخان طائرات اسرائيل المحترقة ودباباتها ، وصافيناز تقلب صفحات مجلات الأزياء الأجنبية فى عصبية .

تعانقنى فى وحشية . تقبلنى قبلات شرسة . فى نعومة مخيفة تتحسس شعرى أصابعها النحيلة .. أقشعر .. أحس أنها ستنشب أظافرها الطويلة الدموية اللون فى عنقى ..

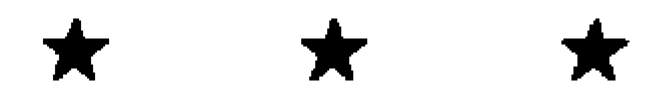
- اعتذر لبابا ..

أتخلص من ذراعيها .. تستنجد بكبريائها .. تصعد السلم الداخلى وتصرخ من أعلى :

- فلاح .. فلاح ..

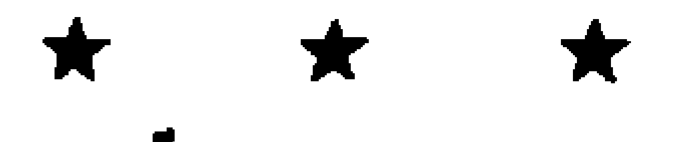
أرفع رأسى .. أواجهها :

- نعم يا صافيناز ياتركية ياحفيدة الباشا .. وهؤلاء الذين أقاموا الجسور وعبروا المستحيل وحققوا المعجزة ، ومازالوا يتمسكون بالأرض مصريون .. فلاحون .

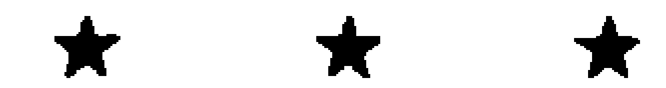


تلوح نهاية الشارع : السور العالى المدججة قمته بشظايا الزجاج واقترب من بيت شارع الدير .. منفانا الاختيارى .. حمدى بعد خروجه من السجن الحربى بعد قضاء سنتى العقوبة ، وإبراهيم بعد عودته من إسرائيل بعد أن أمضى أكثر من سنة أسيراً هناك .. وصباح السمراء «المهجّرة» ضيفة المنفى .. وأنا : الهارب من أحلامى المستحيلة واحتلال صافيناز التركي وأبيها عزيز لإرادتى وكرامتى بعد حرب ٦٧ .

قبل حرب ٦٧ ببضع سنوات عرفت صافيناز الجميلة المطلقة بعد زواج قصير من شاب مثلها .. تزوجتها على الرغم من حبى لأزهار .. لم يعارض عزيز ! هل كان لقاءً متكافئاً فى ذلك الوقت بين محامٍ ناشئ مجتهد يعمل بمكتب محامٍ مشهور بوسط المدينة يتولى قضايا عزيز مع مستأجرى «بقايا» أرضه الزراعية ، وبين عائلة فقدت الكثير من المجد القديم وبضع مئات من الأفدنة وسراية الأسرة التى صارت مقراً لهيئة حكومية؟ بعد حرب ٦٧ احتفل عزيز بعيد ميلاده لأول مرة منذ سنوات احتفالاً صاخبًا ، وازداد طموحاً وسعاراً بعد أن كسب القضية واستعاد السراية بعد رحيل عبد الناصر . ثأر قديم بين عزيز والثورة تحول إلى ثأر بينه وبين جميع المصريين ، ورغبة فى إذلالهم واحتقارهم .. ألهذا وافق عزيز على زواج مصرى فلاح من ابنته وظل ينتظر الفرصة ؟



البـيت .. المنفى .. أطلال الحـديقـة .. أحـبـال الغـسـيل الخـاليـة المشدودة بين جذعى الشجرتين العاريتين .. أوراق شجرة العنب اليابسة تتناثر على الأرض وفوق المقاعد الخشبيـة أسفل «العريشة» .. حمدى يقف فى «الفرندة» .. تقلقنى نظراته الشاردة الحزينة وأنا أصعد درجات السلم الحجرية .



هناك شىءٌ ما قد حدث . أسأل ويجيب حمدى فى غضب مكبوت :

– عبد المجيد رضوان كان عندى .. الجبان يساومنى على نصيب الشهيد على فى الأرض .. يلعب نفس لعبته القديمة .. طردته .. ضحك .. قال إن أخى قد باع له وإن لديه أوراقاً تثبت ذلك .

– كذب .. تزوير .. على لم يبع .. على يحلم باسترداد الأرض ..

– هل قال لك ذلك ؟

– نعم فى آخر إجازة له ..

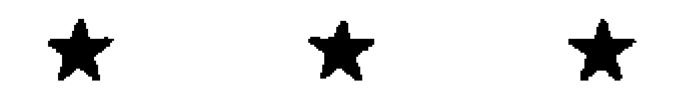
– وماذا أيضاً؟

أهرب من نظرات حمدى المتوجسة ..

– هل ستذهب إلى «الفرح»؟

– لابد أن أذهب .. سأغير ملابسى .

وندخل ..



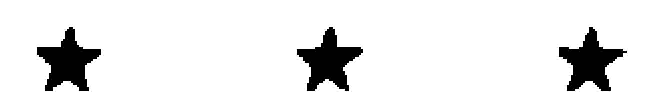
انتظر فى الحجرة التى يطل شباكها على «العريشة» . سامرنا المفعم بالذكريات . السقف الخشبى المنبعج عند المنتصف ، وبيت الخيام المشهور المكتوب على الحائط بخط حمدى الجميل : واغنم من الحاضر لذاته .. فليس فى طبع الليالى الأمان .. يتعادل الجمال الخطى لحمدى مع الجمال الصوتى لأم كلثوم ويمتزجان فى انسجام فاتن .. لماذا لم يعمل حمدى خطاطاً بدلاً من المهن الكثيرة التى حاول فيها بعد فصله من الجيش؟! أصطدم بفراغ الحائط واختفاء الصورة وأحس بافتقاد صباح .. صباح والصورة .. الصورة وصباح .. علاقة غريبة .. مزيج من الإعجاب الخفى والانبهار والمقت والتحدى . انتزع حمدى تلك الصورة بعد خروجه من السجن من غلاف مجلة أجنبية وثبتها على الحائط بالدبابيس .

- ماذا يعجب حمدى فيها ؟! وحياة بنتى أنا أجمل منها .. باين عليها «خواجاية»؟

تسألنى صباح وأخبرها أنها ممثلة أمريكية مشهورة تلعب أدوار الإغراء فى أفلام السينما .

تصيح حانقة : أمريكانية !

وتنطلق منها شتمة بذيئة . تحدق فى صدر الممثلة العارى وساقيها فى الجورب الشبكى الأسود وتلقى بنكاتها الساخرة .



سكون .. خواء .. أشياء مبعثرة .. بلاط قذر .. أحبال غسيل خالية فى الحديقة .. هل يمكن أن تعود صباح؟

- العتبة جزاز والسلم نايلو فى نايلو ..

وصوت صباح يخامر رائحة الطعام فى المطبخ ..

- الطشت قاللى ..

وهى تنشر ملابس حمدى فى الحديقة .

تضيق بقسوة حمدى ومراوغته ولا مبالاته :

- أنا لست خادمة له أو عشيقة .. لماذا يماطلنى ويهرب من وعده بالزواج منى ؟

- وزوجته وأولاده ؟

- لكننى أحبه ..

وتبكى ..

يحاصرها اليأس .. تحدثنى عن مدينتها على شاطئ قناة السويس وكيف صارت خراباً ، وزوجها الذى استشهد فى غارة جوية إسرائيلية على المدينة .

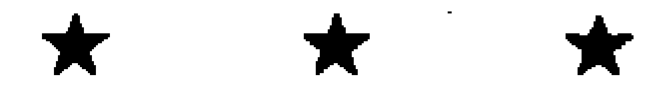
- طلعونا من بيوتنا .. أسكنونا فى مدرسة ابتدائية بقرية صغيرة ناحية «المنصورة» ، وسمونا «المهاجرين» ! ولدت بنتى فى فصل من فصول المدرسة ، وشفت أياماً صعبة .. جئت هنا شايلة البنت على كتفى واشتغلت فى المصنع .. ناس مصر طيبون لكن أنا حاسة أنى غريبة .. تايهة ..

وتحلم صباح :

- سيأتى يوم أرجع فيه لبلدى !

ويعاودها البكاء ...

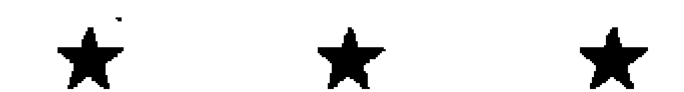
أسخر من حلمها المستحيل . إسرائيل تحتل سيناء ، وحصونها المنيعة تمتد على طول الشاطئ الشرقى للقناة ، وليس هناك سوى اليأس. لكننى أغبطها على شجاعة البوح والحلم ، وأتمنى لو أحكى لها عن أمى وقريتى على ضفاف النهر ، و«أزهار» الجميلة .. حبيبتى .. وهى بجوارى وعربات القطار الخشبية المترنحة تتهادى وسط حقول الأرز ، وأيام المدرسة الإعدادية المشتركة . يطاردنى شبح صافيناز ، فتضيع منى شجاعة الحلم . لماذا صرت أخجل من ذكر اسم قريتى ، أو التصريح بأن لى أماً تعيش هناك؟! أريد أن تنسى صافيناز أننى فلاح لكنها لاتنسى .



الراديو الترانزستور فى ركن الحجرة ..

لم يفارق يد صباح منذ قيام الحرب .. تروح به وتجيء ، تحتضنه كطفلتها وتجرى به بعيداً .. يوشوشها تحت العريشة فتبتسم وتنتشى .. لم تعد تلقى بنكاتها الساخرة .. عبرنا الهزيمة دائماً على لسانها ، ودعاؤها لعلى وزملائه بالنصر .. قالت لنا إنها تبرعت بدمائها للجرحى والمصابين .. ضاقت بنا وبعجزنا . ثارت ، وصمتنا بالجبن . صفعها حمدى . انفجرت صرختها : يا جبان يا حرامى الأسلحة .

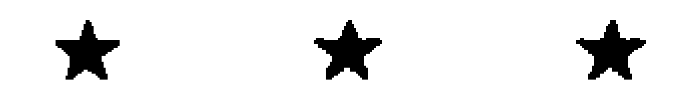
لملمت ملابسها القليلة وخرجت . شاهدنا وهج الحريق من خلف زجاج الشباك . جرينا فزعين .. كانت صباح تجلس على المقعد الخشبى أسفل العريشة وأمامها كومة الملابس تحترق . ألقت بالقطعة الأخيرة فى هدوء ، وسكبت عليها الكيروسين . تأججت النيران والتهمت قميصها النايلون الأحمر . رأيت فى عينيها السكينة والرضاء واللهب يتراقص على وجهها وغادرتُ المنفى فى صمت .



وقررنا أن نكون مثل صباح .

كان الزحام شديداً فى مركز التبرع بالدم بالمستشفى العسكرى القريب .. فتيات وسيدات .. شباب وكهول .. قال حمدى فى مرارة ونحن ننتظر دورنا : هل يمكن أن تمتزج دماؤنا الملوثة بالدخان والمخدرات والخوف والهزيمة بدماء الجرحى والأبطال ؟

تقدم حمدى .. بدا كالحالم .. عرت وجهه انقباضة مفاجئة وكأنه تلقى طعنة سكين .. قال لنا فى الطريق إن أخاه على طاف بخاطره وهو يتبرع بالدم .. رآه يبتسم ويتألم .. طمأنه إبراهيم .. وحكى لنا زملاء الشهيد الذين عادوا أن على استشهد فى نفس اليوم وذات الساعة .



يدخل حمدى ويخرج صورة صغيرة :

- أخى على عندما تطوع فى الجيش .. سأكبرها وأضعها هنا .

أنظر متوجساً للصورة .. تشجعنى نظرته السمحة .. أعتذر إليه.. أقبله .. أحتويه بمشاعرى .

- تأخرنا ..

وخرجنا لشارع الدير .

★ ★ ★

يقودنا شارع مدرسة الصم والبكم إلى الشوارع الجانبية ثم امتداد الشارع الكبير ..

- والله أنا فرحان لإبراهيم كأنى رايح أحضر زفة أخى على .. زملاء الشهيد أخبرونى أن أخى أحب بنتاً من القرية المجاورة لوحدته العسكرية .. كان يذهب لشراء الخضروات من حقل أبيها .. قبل الحرب بأيام ذهب على مع الضابط وطلب يدها ووافق أبوها ..

ونواصل السير ..

★ ★ ★

بلوكات المساكن الشعبية .. خليط من الأصص الفخارية وعلب الصفيح فى الشرفات تخرج منها نباتات العتر والريحان والنعناع .. بضع لمبات ملونة تضىء على استحياء فوق مدخل البلوك .. ندخل ويستقبلنا إبراهيم ويعانقنا ..

- لماذا لم تقيموا فرحاً كبيراً يا إبراهيم .. خيمة وأنوار ومعازيم وموسيقى وزفة ؟!

- كنت أتمنى أن يكون على معنا .. هو صاحب الفرح .. هو صانع الفرحة ..

- على معنا يا إبراهيم .



يرتفع صوت إبراهيم :

- صديقى حمدى أخو الشهيد على .

تشرئب أعناق الحاضرين .. تحدو القلوب خطى حمدى .. العيون تأسو .. تواسى .. تشكر .



إبراهيم بجوار عروسه نادية .. حلم مستحيل يتحقق .. إبراهيم يتخلص من أسره ويتزوج نادية .. ست سنوات وإبراهيم أسير .. أسره الإسرائيليون فى حرب ٦٧ ، وعاد من سجون إسرائيل بعد أكثر من سنة وفى داخله الأسر ..

- لا أنسى نظرات الاحتقار والسخرية من المصريين والعرب فى عيونهم ، والمعاملة القذرة التى وجدتها فى سجونهم .

استسلم إبراهيم للأدوية التى تخرجه من حالة الاكتئاب والوساوس والشك إلى اللامبالاة والطمأنينة الزائفة ..

- أنا لم أعد رجلاً .. لم أعد إنساناً !

أفاق على البيانات العسكرية وعبور الجيش المصرى .. شاهد

الأسرى الإسرائيلين من جنود وضباط على شاشة التليفزيون . استمع إلى اعترافات كبار قادتهم كما شاهد واستمع العالم كله .. احتضن الجرائد وبكى .. انطلق إلى نادية التى لم تيأس لحظة من عودة إبراهيم إليها .. كانت تقول للناس : أنا مخطوبة لإبراهيم ابن عمى .. وسنتزوج قريباً ، وكانوا يشفقون عليها .

★ ★ ★

حضر المأذون وخرج حمدى بعد أن شهد على عقد الزواج وصاح : أين الشربات والزغاريد ؟

انطلقت زغرودة بعد صمت ثم جلجلت الزغاريد ، وعاد الجيران بالشربات ، وشرب حمدى .

تدخل فرقة من العازفين الجوالين يرتدون الجلابيب البلدية ينفخون المزامير ويدقون الطبول .. تصدى لهم إبراهيم .. صاح حمدى : أتركهم يا إبراهيم يشوفوا رزقهم .. اعزفوا يارجالة ..

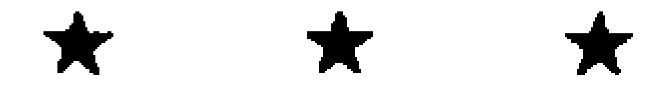
يعزفون : ادلع يا عريس يابو لاسة نايلون .

يخرج حمدى من جيبه ورقة مالية ..

- العريس .. صديق عمرى .. إبراهيم .. العروسة .. نادية .. وألف سلام .. الحب والإخلاص .. الإيمان والصبر والوفاء .. ألف سلام .. الجيش المصرى .. تحية كبيرة وألف سلام .. سلاح المهندسين .. سلام كبير .. أخى .. الشهيد على .. البطل .. ألف سلام .. الشهداء .. الجرحى .. الأبطال .. ألف سلام ..

المزامير بنادق والأنفاس لهيب .. أنغام .. طلقات رصاص .. عبرنا الهزيمة يامصر يا عظيمة .. يعزف الرجال .. تدوى المدافع .. تنطلق الزوارق بأشواق الرجال .. تعبر القناة واليأس والمحال .. الله أكبر والعلم المصرى يعلو حصون بارليف .. الكبارى والمعابر تمتد بين الضفتين .. على وزملاؤه يصلحون الجزء الذى أصيب من الكوبرى .. طائرات إسرائيل الملتاعة تعاود القصف .. غابة الصواريخ المصرية تلهب السماء.. مازال على وزملاؤه يعملون فى بسالة .. يسابقون الزمن .. تتهاوى الطائرات .. ينتهى على والرجال من مهمتهم ويفسحون الطريق.. طائرة مذعورة تقذف بصاروخ ، ينفجر قريباً من الكوبرى .. تتناثر الشظايا .. تنغرس الإبرة فى وريد حمدى .. تخترق الشظايا صدر على.. تحدو عيناه قافلة الدبابات المندفعة نحو الشرق .. يبتسم .. يلوِّح للرفاق .. بقلبه يودعهم .. يتألم حمدى .. وعلى .. وتنساب الدماء .

يغالب حمدى دموعه ويرنو فى فرحة إلى يد إبراهيم فى يد نادية .



رجعنا إلى شارع الدير والبيت لنفاجأ بصباح جالسة أسفل العريشة. تنهض وتسرع إلينا وتمد يدها إلى حمدى ..

- لم أعرف باستشهاد على إلا منذ ساعة .. أنا لم أترك حجرتى منذ خرجت من هنا آخر مرة .

وبكت فى حرقة ...

تتشبث يد حمدى بيدها .. يطلب منها الدخول وترفض بإصرار !

- لا تتركينى ياصباح .. سنتزوج ..

برقت ابتسامة فرحة بوجه صباح الحزين ..

- نتزوج؟!

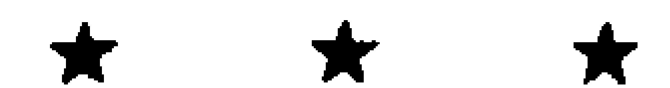
- وتعيش بنتك معنا هنا .

- لا ياحمدى .. ارجع لزوجتك وعيالك وأختك .. لم يعد لهم أحد في الدنيا غيرك .

- وأنت؟

- سأرجع لبلدى قريباً .. الشهيد على وإخوانه فتحوا لنا أبواب الأمل وغيروا حاجات كثيرة .

وخرجت صباح .



دخلنا وجلس حمدى حزيناً ، وانسابت كلماته :

- لم يكن فى عائلة الرشيدى جبان أو خائن .. لاتعرف كيف كان يمزقنى الندم ويحرقنى الشوق وأنا أستمع إلى البيانات العسكرية وأشاهد المعارك فى التليفزيون .. كنت أتمنى أن أحارب بجوار على .. زملائى صاروا ضباطاً عبروا فى أكتوبر وحاربوا وانتصروا .. فى ٦٧ ذهبت إلى سيناء لأحارب .. لم أطلق رصاصة واحدة على العدو .. لم التق بعسكرى اسرائيلى وجهاً لوجه .. وكانت طائرات إسرائيل تلهو فوق سيناء ، والطيارون يتسلون بمطاردتنا فى الصحراء . رأيت زملائى

يتساقطون ويحترقون بالنابالم . تركنا دباباتنا وأسلحتنا لليهود . كنت أريد أن أهرب بالسلاح قبل أن يستولوا عليه . اتفقت مع الجندى السائق . نقلنا البنادق والرشاشات والقنابل لعربة الجيش . كان فى نيتى تسليمها لقيادة السلاح . رأيت كل شىء مباحاً وسهلاً .. الطرق مفتوحة والبلد كلها فى ذهول .. تذكرت ماحدث .. اعترتنى رغبة فى الانتقام ممن تركونا فى العراء نواجه الموت .. غيرت رأيى وأمرت السائق بتغيير مسار العربة .. وصلنا لشارع الدير فى الليل .. خبأت الأسلحة هنا وطلبت من «سيد» صاحب السوابق البحث عن مشتر .. أبلغ عنى . لا أنسى سيارة الشرطة العسكرية الواقفة أمام بوابة البيت الكبير وأهل الحى يتهامسون : ابن الرشيدى سرق أسلحة الجيش ، وسيد الحرامى بلغ عنه !! كانت عيونهم تعاتبنى ، تجلدنى وأنا أركب السيارة .. السائق انتحر .. قطع شرايينه بالموس ببشاعة ومات فى مستشفى السجن .

تدمع عيناه ..

- حتى صباح ! لماذا لم تعطنى الفرصة ؟

- هل تحبها ؟

- لا أعرف !

- كنت محتاجاً لها ..

- ممكن ..

- هى أيضا كانت تحتاج إليك .. صباح لم تنس زوجها أو مدينتها لحظة واحدة .. صباح على حق .. ارجع لبيت العائلة .. هذه وصية أخيك على وآخر كلماته لى على محطة القطار .

- لم تقل لى !

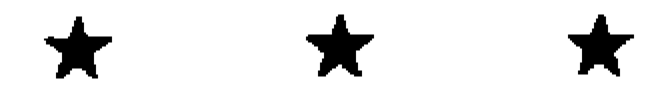
- كنت أنانياً .. خائفاً من ضياع حصنى الأخير : هذا المكان . رباط الحب والأمان الذى يربطنى بالقاهرة .

يهمس حمدى فى أسى :

- هل سامحنى أخى ؟ الم يقل لك إننى كنت أعمل لحساب عبد المجيد رضوان ضد أهلى؟ ألم يقل لك إننى أخذت منه عمولة لأجبر أمى على البيع وأغرى شقيقتى ببيع نصيبها من الأرض؟ ألم يقل لك إن أمى حزنت ومرضت وقالت وهى على فراش الموت : ليت كل شىء ضاع وبقيت لعائلة الرشيدى الكرامة .. هل تعرف لماذا أغلقت دكانى الذى اشتريته بفلوس عبد المجيد رضوان بعد أقل من شهر؟ أهل الحى قاطعونى .. حتى الأطفال ! لم أستطع البقاء فى قلب الحى . كنت أحس أن وجهى يذكرهم بالهزيمة .. هربت لشارع الدير .. هل كان يجب أن يتطوع على فى الجيش ويسقط شهيداً لأرفع رأسى بين أهل الحى وأرجع للبيت الكبير ، وأفتح دكانى من جديد ، ويقول الناس: حمدى أخو الشهيد .. أنا لا أستحق أخاً مثل على ..

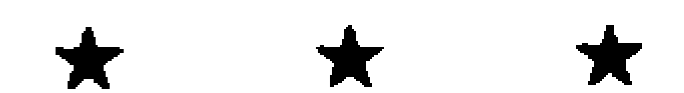


تركت حمدى يتخذ قراره فى هدوء ، ووقفت حائراً فى الحديقة لا أدرى إلى أين أذهب ؟ ألقيت بجسدى على المقعد الخشبى أسفل العريشة أمام رماد الملابس وآثار الحريق . الممثلة الأمريكية أشلاء تتطاير مع أوراق العنب اليابسة . يعاودنى إحساسى بالضياع وأنا على يقين أن حمدى سينفذ وصية الشهيد ويغادر المنفى كما غادره إبراهيم وصباح .. ماذا بقى الآن لى من المدينة؟ وماذا أبقت منى المدينة؟ جئت من قريتى مفعماً بالحماس والأمل فى المستقبل فصرت تابعاً لعزيز أدهم الذى يتاجر فى كل شىء ، وزوجًا لدمية وحشية تحتلنى .



صافيناز نبات ظل .. شجرة زينة .. مبرقشة مثل جلود الزواحف..أزهار حقل أرز فى قريتى .. زاهى الخضرة صريح اللون .. عاشق للماء والشمس .. يثمر .. يملأ البيوت بالخير .. أشتاق العودة للقرية .. كيف ستلقى الأم ابنها الجافى العائد بعد غياب؟ بماذا ستجيبنى عندما أسألها عن أزهار ؟

يؤذن الفجر وتزقزق العصافير .



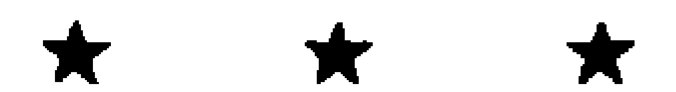
ودعت حمدى عند شارع مدرسة الصم والبكم ومضى حاملاً حقيبة ملابسه فى طريقه للبيت الكبير . أواصل السير بحذاء سور الدير . يحتوينى الشارع .. يتقلص .. يتلوى .. يدفعنى نحو العنق الضيق ..

أتقلب فيه .. أتشبث بأغصان الكافور والبوابات الموصدة .. يقذفني الشارع وتدوى في داخلى الصرخات .. أتنفس وأفرح .

مقهى صغير وعربة ساندوتشات وعمال يأكلون ويشربون الشاى . الوجوه راضية .. باسمة .. تلاميذ يحملون شنط الكتب القماش وينطلقون إلى المدارس .. أول مرة أشاهد الصباح جميلاً هكذا !

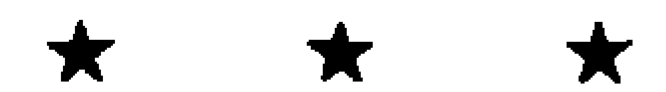
أرض الرشيدى .. اسم عريق محفور في ذاكرة الحى .. أى طفل من هؤلاء العابرين يجيب بعفوية إن سألته : هذه أرض الرشيدى .. لا وجود لأشجار المانجو المثمرة على حدود الأرض ولا النخلات .. أطلال المسبك القديم . كأنى أرى الأسطى الرشيدى فى معطفه الأزرق ومن حوله «الصبيان» يصهرون الحديد . رجال عبد المجيد رضوان فى الكشك الخشبى القبيح .. فى أيديهم البنادق والرشاشات ..هل يمكن أن تعود أرض الرشيدى؟ أسمع على يقول لى : هناك أحلام صعبة وليست هناك أحلام مستحيلة .

حلم صعب ياحمدى الرشيدى .

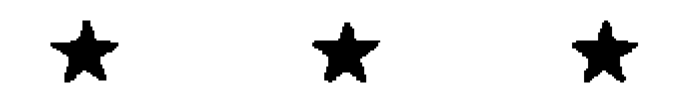


هتافات هادرة : تحيا جمهورية مصر العربية .. تتردد ثلاثاً .. تعترينى نشوة ورجفة .. أتوقف أمام بوابة المدرسة الابتدائية .. الهامات مرفوعة والأرجل ترتفع والأحذية الصغيرة تدق الأرض فى ثقة وإصرار .. أرى بينها قدمين أكبر حجماً فى حذاءٍ ميرى لامع ..

الأكورديون يتماوج بين يديّ التلميذ الصغير ، والأيدى تقرع الطبول فى حماس .. رايحين شايلين فى ايدنا سلاح .. راجعين رافعين رايات النصر .. تنتظم الخطى وتتوحد .. أزهار النصر تتفتح على أناشيد النصر .. نفوس لم تعرف مرارة الهزيمة وضياع الأحلام .. أجيال معركتها القادمة القريبة مع عزيز أدهم وعبد المجيد رضوان وتجار الدم والأعضاء المبتورة .



تتردد الأناشيد فى خاطرى وأنا أسرع الخطى إلى محطة القطار .. سأعود إلى أمى ، وحقول الأرز ، يراودنى حلم صعب : أن أجد «أزهار» مازالت فى انتظارى .



أصـيلة تـرفض الرقص

أصيلة ترفل فى كسوتها الحمراء .

تتطلّع فى إباء إلى تيجان الأعمدة المكلّلة بذهب الشمس المنسكب على المعبد .

تدقّ الطبول وتعزف المزامير ..

تهزّ أصيلة رأسها فى تيه ..

تتمايل فى دلال ..

تتوافق حركة ساقيها الأماميتين الرشيقتين مع الإيقاع وتنتظم مع تصفيق الأكف ..

ترفع عن الأرض ساقاً ..

تثنيها .. تخفضها ..

تتقدم .. تتراجع ..

تكرّ .. تفرّ ..

تبرك على الأرض وتنهض ..

وأبو زيد على ظهرها يهتز جسمه الممتلئ ، وعلى وجهه الأسمر ابتسامة لا تنطفئ . يكشف كم جلبابه الصعيدى عن ساعديه القويين . يأمر فتطيع أصيلة ، والعيون الزرقاء الصافية فى الوجوه الحمراء الملتهبة تحت حر الشمس تحملق فى انبهار . ترتفع الكاميرات وتنطبع على الورق عشرات الصور لأصيلة وخيّالها أبى زيد . ذكريات ومشاهد مثيرة للدهشة من بلاد الشرق الدافئة . من أرض الفراعنة والسحر والغموض تبقى بعد العودة إلى الأوطان النائية .

تنتهى أصيلة من الرقص .. يمسح أبو زيد على جبينها ويلثم غرّتها البيضاء :

- أصيلة يا وش السعد .

يطعمها السكر وتحتويه بنظرات شجية حانية .

انطلق أبو زيد على ظهر أصيلة . لاحت على البعد بيوت القرية المبنية بالطوب الأحمر ذات الطوابق والشرفات . انعطف فى طريق جانبى. وجد الشيخ جالساً تحت النخلة . توقف ، نزل وترجل ساحباً أصيلة وراءه .

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام .. إلى أين يا زين الفرسان ؟

لم ينتظر الشيخ جواباً :

- إلى حسان ..

تعلقت نظرات أبى زيد المرتابة بوجه الشيخ الضرير :

- أشرب معه الشاى ونتحدث .. حسان ابن عمى وصديقى يا خال سليمان .

- حسان حارس الكنوز الأمين حامى حمى الأجداد .

ينهض الشيخ متوكئاً على عصاه .. يتحسس جسد أصيلة ..

- كيف حالك ؟

تصهل ويبتسم الشيخ :

- وشكا إلىَّ بعبرة وتحمحم ..

ماذا بك يا أصيلة ؟!

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى .. ولكان لم علم الكلام مكلمى

- تعشق عنترة يا خال ..

- ومن لايعشق أبا الفوارس يا ولدى؟

ينظر أبو زيد فى وجه الشيخ متعجباً . الأشعار والذكريات محفورة فى عقله كالنقوش والرسوم على جدران المعابد والتماثيل الأثرية التى يزخر بها المكان . كأنه وهو ممسك بعصاه شاخص الوجه إلى السماء أثر من تلك الآثار الخالدة . لم يتغيَّر أو يتبدَّل منذ كان معلماً يلتف من حوله الصبية يحفِّظهم ويدرِّس لهم . ربما صار يبصر أكثر مما كان قبل أن يكفَّ بصره .

- على ظهر أصيلة حارب خالد بن الوليد وانتصر صلاح الدين على الفرنجة وبيبرس على التتار ووقف عرابى قدام الخديوى .

- كان هذا فيما مضى ياخال .

- تعشق الخيل الحرب يا ولدى .. تحن لصليل السيوف .

- ما عادت الخيل تصلح إلا للرقص يا خال .. خيل هذا الزمان تهوى الطبل والمزمار .

سكت أبو زيد قليلاً .. تأمل وجه الشيخ :

- تتحدث عن الحرب يا خال وهذا زمن السلم !

- وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .

- والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة .

- والعاديات ضبحاً .

- هذا زمن التماسيح والخنازير والقرود والصواريخ والفيديو والمتعة يا شيخ .

استدار الشيخ سليمان عائداً يدق الأرض بعصاه ، ودعا أبا زيد إلى الجلوس ، فجلس متوجساً .

- هل تذكر أصيلة الأم يا ولدى؟ أصيلة الكبيرة؟ كان لها غرةٌ بيضاء على جبينها .. فرس محجلة .. وفية كريمة الأصل . والبنت لأمها يا أبا زيد .

- تماماً يا خال أصيلة هى أصيلة .

- وكان أبوك همام فارسها وخيَّالها .. الخيل تفهم يا ولدى .. هل تذكر عندما أنزلت نعمة من على ظهر أصيلة الكبيرة وأركبت السايحة الأجنبية؟ رفضت أصيلة أن تتحرك .. وجرت نعمة والدموع فى عينيها تشكو لأبيك همام .

قاطعة أبو زيد :

- كانت نعمة لم تزل بنتًا صغيرة وكنت صبياً أجرى وراء السياح بالأنتيكات .

فاجأه الشيخ بعد لحظات صمت :

- كيف حال نعمة أم العيال ؟

نكس أبو زيد رأسه . ربت الشيخ على كتفه :

- صن النعمة يا ولدى تدم لك .

استأذن أبو زيد وسار تتبعه أصيلة .. كان حسان حارس المقابر الأثرية فى انتظاره وسط التلال والتوابيت الحجرية الكبيرة .. توارى الرجلان خلف تابوت ، وأصيلة واقفة تلحظهما محزونة .

- الخواجة جوزيف سيدفع بالدولار .

- جوزيف الـ ...... !

- البلد كلها تبيع لجوزيف والخواجات .. مولد وصاحبه غائب .

- تريد الدولارات لتتزوج عزيزة الغازية؟

- عزيزة ليست غازية من غوازى الموالد والأفراح .

- عزيزة ترقص للأجانب وتسامرهم كل ليلة فى الفندق .

- أنا أحب عزيزة . عزيزة البيضاء .. طول عمرى أحلم بالبيضاء .

- ونعمة ؟

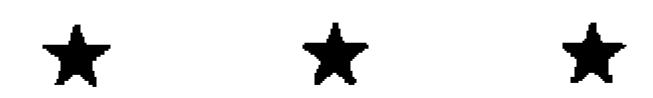
- كفى ياحسان .. سأرجع فى الليل حسب الاتفاق .

- لكن يا ابن العم ؟

- خائف ؟

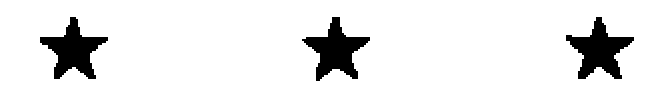
- غضب الأجداد وانتقامهم يا أبا زيد .

وحدثه عن الذين عبثوا بمقابر الأجداد ، فتجمدت أياديهم وأرجلهم أو أصابهم العجز ، ثم ماتوا أو انتحروا . وأغراه أبو زيد بالدولارات والفيديو ومعيشة الكبار من أهل البلدة ، وهزَّ حسان رأسه كالمخدور موافقاً .



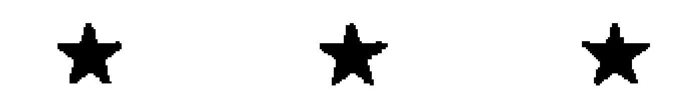
فى الدار كانت نعمة السمراء ذات الوشم الأخضر على الذقن ، لم تزل تعصب بالطرحة السوداء جبينها ، وترتدى الجلباب الأسود . همام الابن حزين واجم وسليم والبنتان . كأن الدار فى حداد . شقَّ أبو زيد لنفسه فى الأحزان طريقاً وأغلق عليه باب الحجرة . حديث الشيخ سليمان عن نعمة أثار فيه الشجون . لقد شاهده ابنه همام على ظهر أصيلة وعزيزة خلفه يطوف بها المدينة . أتراه أخبر أمه؟ هل عرفت نعمة

والعيال كل شيء؟ نعمه تعذّبه بصمتها . هو يحبها . نعمة بنت خاله سليمان وحبيبته الأولى وزوجته وأم عياله . لكن عزيزة أيقظت في قلبه ذكرى كريستينا ، السائحة القادمة من بلاد الشمال الباردة البعيدة . كريستينا البيضاء الجميلة ، التي ضربه أبوه همام عندما أركبها على ظهر أصيلة الكبيرة ، وقال كلمته الحاسمة : ستكون نعمه لأبي زيد . أيقن أبو زيد وكريستينا تودّعه أمام الفندق ، وتختفي خلف ستارة الأتوبيس السياحي أنه لن يراها إلى الأبد . لكنها عادت بعد طول غياب . عادت مصرية بيضاء .. عزيزة .



نهض أبو زيد وأطلّ من النافذة . لايدرى لماذا تتردد في داخله كلمات أبيه همام ، وهو يراه مقبلاً كالطيف على ظهر أصيلة الكبيرة :

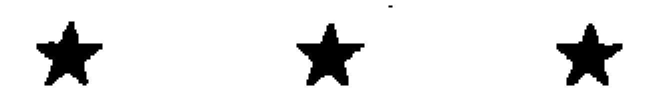
«الفارس يحزن ويحن ولايبكي يا ولدي .. يموت الفارس في الرجل منا إذا أضاع شرفه وباع كرامته» . تزلزله الكلمات . تخلع قلبه من الرعب . يغالب دموعه ويقهرها .



الظلام يخيم على الجبانة الأثرية . أبو زيد يصارع إحساساً بالرهبة ، وهو يتبع حسان إلى داخل المقبرة . وعلى ضوء الكلوب ، يجول أبو زيد بنظراته بين جدران المقبرة . يتأمل المرأة الفرعونية في ردائها الملون . يحدق في وجهها ويغالبه الحنين :

- شبه نعمة امرأتى الخالق الناطق !

ينخر المنشار فى الحجر وجزء من جدار المقبرة ينتزع من مكانه .

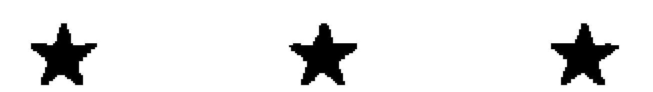


عبر أبو زيد إلى الفندق العائم الرابض فى النيل . تفحّص الرجل اللوحة الأثرية . وملامح وجهه تنطق بالانتصار :

- أجدادنا شربوا من النيل وبنوا الهرم .

- الهرم بناه المصريون يا جوزيف !

ابتسم ابتسامة باهتة . إحساس بالمهانة يخنق أبا زيد ويده تمتد لتأخذ منه الدولارات وتصافحه .



فى الفندق السياحى أعطى أبو زيد عزيزة نصيبها من الدولارات . رقصت له . طلب منها أن تفى بوعدها . راوغته وماطلته . وعندما عاد إليها بعد أيام لم يجدها . أخبروه أنها ذهبت لترقص فى مكان آخر بعد أن انتهى عقدها مع الفندق .

سار أبو زيد مترنحاً مهزوماً . الفرس الوحشية غدرت به . مرغته فى التراب وداسته بسنابكها .

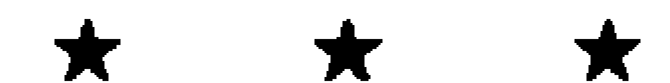
كانت نعمة فى الدار ساهرة . قال لها بصوت هامس أقرب إلى التوسل :

- نعمة !

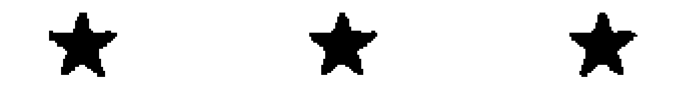
ابتسمت . خلعت الجلباب الأسود وارتدت ثوباً نارياً براقاً . جلست تتعطّر وتتزيّن وتمشط شعرها وتكحل عينيها وتنظر إلى أبى زيد فى تحدٍ . مثلت أمام عينيه المرأة الفرعونية التى سلمها بيديه إلى جوزيف . أحسّ بالعجز وهو يقترب من نعمة . نعمة تقتل فيه الرجولة بهذا الاستسلام الرافض .

«الفارس لا يمتطى فرساً بغير رضاها»

ترك أبو زيد الجسد المحنط فوق الفراش ولم يغمض له جفن .



تتجمل المدينة ويتحدث الناس عن الوفد القادم من خلف الحدود عبر الصحراء لمشاهدة الآثار القديمة . الكبار فى المدينة ينتظرون . عازفو الطبل والمزمار يصطفون . أصيلة فى كسوتها الحمراء الجديدة تخطر كالعروس وأبو زيد على ظهرها . يتوقف الأتوبيس الفخم ويهبط القادمون . خليط من الوجوه والعيون على كل شكل ولون . يتحلقون حول أصيلة ، يحاصرونها ويشهرون فى وجهها الكاميرات . الطبول تدق والمزامير تعزف وأصيلة من وسط الزحام تشرئب وتتعلق نظراتها بالمعبد المكتسى بذهب الشمس ولا تتحرك . تجمدت . صارت كتمثال حجرى من تماثيل الأجداد . أبو زيد يأمرها .. يحايلها .. وأصيلة لا تطيع .



انطلق أبو زيد بأصـيلة . اقـتـادها وسط التـلال الأثرية . توقف بالقـرب من تابوت حـجرى . يتـحسس جسـدها . تنفـر منه وتشـيح عنه بوجهها .

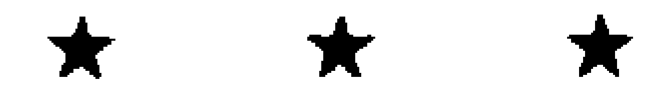
– وبعدها لك يا أصيلة ! نعـمة فى الدار تخاصـمنى وأنت ! ماذا فعلت؟ أحببت عزيزة البيضاء .. كريستـينا .. ما كان قلبى بيدى . أغويت حسان؟ بعت قطعة حجر لجوزيف؟ كبار البلدة باعوا ويبيعون . لماذا لم ترقـصى لهم يا أصـيلة؟ عـزيزة ترقص . زمن العـداوة انتـهى . جوزيف يعيش بيننا ويشرب من نيلنا . اشتقت للحرب وزهقت من الطبل والمزمار؟ أليس هذا زمن السلم يا أصيلة؟!

يجلس أبو زيد على حافـة التابـوت الحجرى . يحدِّق فى فراغـه . يردد فى غيظ مكبوت : جوزيف .. عزيزة الغازية ... أنا !

يدفن وجهه فى كفيه . ينخرط فى البكاء .. يصرخ :

– لماذا لم ترقصى يا أصيلة؟

يتردد صدى صراخه فى الفضاء . يزيغ بصره . يضع يده فى ثيابه . يخرج مسدسه . يقبض عليه . تتقدم إليـه أصيلة بخطوات ثابتة ، وتقف أمامه مرفوعة الرأس .



الفهـــرس

المؤلف

- حسن صبرى

- حاصل على بكالوريوس الصيدلة من جامعة القاهرة .

- حصل على الجائزة الأولى من نادى القصة عام ١٩٩٢ عن قصة «أصيلة ترفض الرقص» .

- حصل على المركز الأول فى مسابقة أخبار اليوم الأدبية عام ١٩٩٧ عن قصة «الأبراج» .

- نشرت له أعمال بمجلة القصة وجريدة الأهرام .

صدر من الكتاب الأول

١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - لكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد رزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيله
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد

العنوان	النوع	المؤلف
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - أفراخ الحمام	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف
٣١ - كرحم غابة	شعر	خالد أبو بكر
٣٢ - الآخر	مسرحية	ياسر علام
٣٣ - جمر الأصابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمرة وحيدة	قصص	حسن صبرى

لجنة الكتاب الأول :

غير ملزمة بإعادة أصول الأعمال إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩١٧٩ / ١٩٩٩



كل قصة من قصص الكتاب تكتشف فكرتها فى مواقف ومشاهد مستمدة من الواقع، دون أن تقف عند السطح . ويعتمد البناء القصصى فى هذه المجموعة على ارتياد توتر حاد فى التجربة القصصية، ومأزق تجد الشخصية نفسها متورطة فيه .

ولا تسير الأحداث إلى الأمام فى افتعال تدفعها فكرة مجردة، بل تدفعها قوى ماثلة فى طبيعة الموقف، يكتشفها السرد فى صبر وأناة .





١٩٩٩